



المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف - ميلة -

المرجع:

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

صورة الآخر في رسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي

مذكرة مقدمة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: أدب عربي

تخصص: أدب قديم

إشراف الدكتورة:

إعداد الطالبة:

كاملة مولاي

* - عفاف مختارة

السنة الجامعية: 2016/2015

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دُعَا

باویٰ ذی برہ نفتح کلامنا برعاء للنبي (ﷺ) (اُین نقول :

اللهم احفظنا بالاسلام قائمين و قاعرين

و لا تشمت بنا عروا و لا حاسرا

اللهم اننا نسألك من كل خير خزائنه ببيرك

و نعوذ بك من كل شر خزائنه ببيرك

اللهم من اعتربك ... فلن يزل

و من اهترى بك ... فلن يظل

و من استكثر منك ... فلن يقل

و من استقوى بك ... فلن يقل

و من استغني بك ... فلن يفتقر

و من استنصر بك ... فلن يخزل

و من استعان بك ... فلن يغلب

و من توكل عليك ... فلن يخيب

فالله ملك الحمير كما ينبغي لجلال وجهك ... و عظيم سلطتك

الله الحمير و الشكر أن وفقتنا للإنهاء هذا العمل

بعد تعب وجهر و عناء كبير و صبر طويل

فقد تم بفضل الله الولي المعني القدير

آمين

سُبْحَانَكَ يَا عَزِيزًا

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه و عظيم سلطانه
أول الشكر شكر الله سبحانه و تعالى على إنباعه علي للإتمام هذا العمل المتواضع
و سخر لي من عباوه من أعانني على ذلك
بعدها أقدم بجزيل الشكر و خالص العرفان و الامتنان
للركتورة "كاملة مولاي" التي تفضلت بالإشراف على مذكرتي
فلم تدرّخ جهرا ولا علما في سبيل ما أولته لهذا البحث من عناية و توجيه
فلهذا كل الاحترام و التقدير
و أيضا الشكر العميق للأساتذتي من لجنة المناقشة
الذين يسهرون على قراءة و تقييم البحث
و يبذلون من الوقت و الجهد في ذلك الكثير.

أهري

إلى من كانت همساتها رمزاً للقوة والمحبة والحنان .. و كانت رمزاً للعطاء والسخاء
فقرمت سنين عمرها تضحية لنا... إلى من علمتني أن الحياة صبر وكفاح وكانت سنداً
وإنما لي في كل مراحل حياتي ... "أُمِّي الغالية" أطال الله في عمرها وجعلها من أهل الخير
إلى من أووعته الثرى إلى قلبي ... الذي انتزعته مني المنية منذ صغري
فترك فكريات مرسومة الملامح في أوهاننا..

إلى "روح والري الطاهرة" أسكنه الله فسيح جنانه
إلى من مثل وور الأب و تحمل مسؤولية الأبوة منذ صغره فكان خير مربى لي
والإخوتي "خالى الحبيب" .. و إلى من شاركته عبء تحمل المسؤولية زوجته الأمينة
إلى رفيق وربى و سنري في الحياة... إلى من كان وعمه لي خير عون في مواصلة ورأستي
فمثل أمل المستقبل ... إلى نور الحياة "زوجي الغالي" و إلى والرتة الكريمة والطيبة
إلى وفء حياتي وبسمتي إلى حبيباً قلبي و سنري في الحياة
"أخي الحبيب مسعود" و أختي الغالية "مريم"
و إلى فرحة المنزل الصغيرة "ريتا" ... و عصفوره "إسلام"
إلى رفيقات الدرب و إلى من تشاركنا سعي الأفرح والأحزان

"عفاف، رقية" وون نسيان سارة

أهري هذا العمل

عفاف

حکیم الباقی
ہے ہے ہے ہے ہے ہے ہے ہے

الفصل الأول: فن الأدب الجزائري

المبحث الأول: مفهوم الصورة و الآخر في التراث العربي و الغربي

تمهيد

أولاً: مفهوم الصورة

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

ثانياً: مفهوم الآخر

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

المبحث الثاني: نشأة الرسالة، أنواعها و خصائصها

تمهيد

أولاً: مفهوم فن الترسل

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

ثانياً: نشأة أدب الرسائل و تطوره و مميزاته

1. الرسالة في العصر الجاهلي

2. العصر الإسلامي

3. العصر الأموي

4. العصر العباسي

ثالثاً: أنواع الرسائل و أصنافها

1. الرسائل الديوانية

2. الرسائل الأهلية-الإخوانية

3. الرسائل الأدبية

4. رسائل المزاوجة

رابعاً: الخصائص الفنية لأدب الرسائل

1. بنية المقدمات

2. بنية المضمون أو العرض

3. بنية الخاتمة

خامساً: شخصية كاتب الرسالة

المبحث الثالث: الرسالة في الأدب الجزائري القديم

بدايات الأدب الجزائري القديم

1. الفترة التاريخية و الزمنية لنهضة الأدب الجزائري القديم

2. مفهوم الأدب الجزائري القديم

3. بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي

ملخص

الفصل الثاني: قراءة في رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي

المبحث الأول: السياق النصي في رسائل البجائي

1. الهدف من دراسة أدب الرسائل

2. أهمية أدب الرسائل البجائية و قيمتها في الأدب الجزائري

3. القصد من تحليل رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي

4. تقديم رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي

المبحث الثاني: البناء النصي لرسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي

1.الكشف عن البنى الداخلية للرسائل

2.أنواع الرسائل

3.خصائص ومميزات الرسائل البجائية الموحدية

المبحث الثالث: صورة الآخر في رسائل البجائي

تمهيد

1.صورة الآخر الإيجابية

2.صور الآخر السلبية

3.جدول يبين صور الآخر

خاتمة

ملحق

ملخص

قائمة المصادر و المراجع

فهرس الموضوعات

ਮੁਕਤੀ ਮੁਕਤੀ
ਮੁਕਤੀ ਮੁਕਤੀ
ਮੁਕਤੀ ਮੁਕਤੀ

مُقَدِّمَةٌ

إذا عدنا بأدراجنا إلى رياض الأدب و حياة الفن العربي فإننا نجد الكثير من الأجناس الأدبية التي تم حصرها في لونين، إما النثر أو الشعر، و كلاهما تألق نجمه و سطع، فترك لنا تحفا أدبية جديرة بدراستها، و هذا ما ساعد في إثراء أدبنا و بقاء استمراريته.

وكما هو معلوم أن لكل أمة أدبها الخاص بها الذي تسعى لإعلاء قيمته والرفع من شأنه أمام آداب الأمم الأخرى فبرقي أدبها ترسم حضورها و تؤرخ لكيانها، و عبر أدبنا الجزائري القديم عن فرع من فروع الأدب العربي و المغربي، فكان أدبا مستقلا بكيانه حدد ألوانه و طبوعه كتاب و شخصيات اهتموا بترسيخ ملامحه وأحدثوا نهضة للتأكيد على وجوده، فلطالما شدت الأنظار إلى هذه الحقيقة و قصة امتداد جذوره فكثرت التساؤلات حول مصداقية استقلاليتها من عدمها و إن وجد ما هي طبوعه وألوانه، و هذا ما جعله محط أنظار الدارسين لذلك كثر البحث فيه وفي قضاياها، و التي أسفرت عن نتائج أكدت حضوره وأفادت بقوة نضجه وتنوع أجناسه واختلافها، لذلك كانت فنون النثر وفيرة ومتنوعة في مجاله و بالتالي دعتنا هذه الوفرة للإلمام بأبعادها ومحاصرة أحد ألوانها بتأطيره ضمن أدب الرسائل.

و نظرا لاهتمامي بهذا الموروث القديم النشأة وقع اختياري على رسائل أدبية قديمة من العهد الموحي منطلقا في تقويم نثر أحد أبرز كتاب هذا الأدب في ذلك الزمن، فصح عزمي أن اقترح موضوع:

صورة الآخر في رسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي، ليكون مادة البحث والدرس لمذكرة التخرج، و ما تحسن الإشارة إليه أن أدب الرسالة من الفنون النثرية الكتابية القديمة النشأة، كما أن مصطلح الصورة قديم العهد في تأطيره متعدد المفاهيم والمدلولات

التي تباعدت دقة الاصطلاح فيه، أما مفهوم الآخر فلا يمكن تحديده إلا بوجود الذات التي تؤكد على حضوره و بالتالي يمكن القول أن هذه المصطلحات هي مادة زئبقية اختلفت مضامينها لدى النقاد الدارسين و من هذا المجلى برزت صعوبة البحث و معضلة الدرس في هذا الموضوع، والإشكال المطروح:

- ما مفهوم الصورة و ما هو مستوى حضورها في الأعمال الأدبية؟
 - كيف يمكن رصد الآخر و على أي أساس يفصل في حضوره في النصوص الأدبية؟
 - هل للأدب الجزائري حضور مستقل أم أنه امتداد شكلي للأدب المغربي و ما هو المعيار المعتمد لدى النقاد في استقلاليته؟
 - هل للرسالة وجود في الأدب الجزائري القديم؟
- لذلك فإني سأتولى الإجابة عن هذه القضايا من خلال البحث و بجمع ما تقدم من بواعث مطروحة وجدتني مشدودة لهذا البحث مدفوعة لوقوف على آثار هذا الأدب مهمته بأديبنا -البجائي- و معاشة تفكيره، فكان من أهم الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع:
- محاولة معرفة صور الحياة و بناء الشخصية الجزائرية القديمة من خلال ثقافة صاحب النص و بالتالي إظهار جانب من الثقافة السائدة لدى المجتمع الجزائري القديم.
 - إبراز الجوانب الجمالية و الفنية لأدب الرسائل.
 - إثبات حقيقة وجود أدب جزائري مستقل و متنوع.
 - نفور الطلبة من النثر على حساب الشعر وقلة الدراسات في جنس الرسائل.
- وتطلب الموضوع خطة بحث بمقدمة وخاتمة هي زبدة البحث، بينهما فصلين:

أما الفصل الأول فكان بعنوان: "فن الرسالة في الأدب الجزائري" تناولت فيه ثلاثة مباحث، فوقفت بين يدي العنوان وعرضت فيه لأهم المفاهيم التي تظهر ملامح تطور هذا الفن عبر العصور فعني المبحث الأول: بمفهوم الصورة ومفهوم الآخر في التراثين العربي والغربي في اللغة و الاصطلاح.

و تناول المبحث الثاني: نشأة أدب الرسائل وتطوره و مميزاته من خلال رصدنا لحركة تطوره في العصور القديمة، كما تحدثت فيه عن معنى الرسالة في اللغة والاصطلاح، واهتديت فيه لأهم خصائص وتقنيات هذا الفن مع إبراز أهم أنواعه، فكانت لي وقفة خاصة في موضوعات الرسائل وأهم التقنيات التي وظفها الدارسون للكشف عن مضامين بنية الرسائل نحو: بنية المقدمة، المضمون الخاتمة، دون أن أهمل الحديث عن شخصية رواد هذا اللون.

أما المبحث الثالث، فقد اشتمل على قضية الأدب الجزائري فنظرت فيه إلى حضور أدب الرسائل كلون مستقل بذاته واستقصيت فيه مفهوم هذا الأدب وروافده وتياراته فأخذت أهم الدول التي تشربت من هذا اللون نحو: الدولة الرستمية وأشهر كتابها، والموحدية و أنقى مؤلفيها و الزيانية وأبرز روادها فكان تركيزي على الدولة الموحدية أكثر من غيرها لتظهر لنا طائفة كثيرة من أعلام النثر والكتابة خلفوا مدخرات فكرية تصلح لأن تكون بحوث للدراسة، ثم أنهيت البحث بخاتمة أودعت فيها الخلاصات والاستنتاجات التي اهتديت إليها.

و قد اقتضى هذا البحث الاعتماد على منهج بحث مركب تداخلت فيه المناهج البحثية المختلفة و المناسبة لمقامتها في الدرس، فنجد المنهج التاريخي الذي اعتمدته في الفصل الأول مبينة مفهوم المصطلحات و متبعة تطور هذا الفن عبر العصور وذاكرة مراحلها في الأدب الجزائري من خلال الدويلات المذكورة، معتمدة في ذلك تقنية الوصف والتحليل، أما المنهج التفكيكي فكان حاضرا في دراسة الرسائل في الفصل الثاني و هو ما دعا إلى المزج بين المناهج.

ولإثراء هذا البحث، اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها: كتب تاريخ الأدب العربي في مختلف العصور نحو: كتاب عمر فروخ بعنوان تاريخ الأدب العربي القديم، وكتاب: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية للافي بروفنصال و غيرها من كتب الأدب الجزائري.

و كباقي البحوث فإنه لا يخلو من الصعوبات و العقبات التي تواجه الباحث نحو: كثرة نتاج فن الرسائل في عهد الموحدين وصعوبة رسائل البجائي وهو ما يتطلب قراءات كثيرة لتأطيرها في كل عصر ومعرفة طبائع هذا الفن وأنماطه.

- غزارة أعمال البجائي بتفكير أدبي رفيع في تصوراته و ألفاظه وتراكيبه وأسلوبه وهو ما يتطلب مني جهدا لفهم نسيج تقنياته.

- استعمال الغريب من ألفاظ اللغة ما جعلني في كثير من الأحيان أضطر للعودة إلى أمهات الكتب.

وأخيرا الشكر والحمد لله تعالى على إعانته لي في إنجاز هذا البحث، والشكر الجزيل للأساتذة الدكتوراة: كاملة مولاي، التي تفضلت بالإشراف على هذا العمل وكانت سندا لي من خلال إرشاداتها وتوجيهاتها، وأقرّ أن هذا جهد بذلت فيه ما استطعت، فأصابتني توفيق من العلي العزيز و الخطأ والتقصير فمني و حسبي في ذلك أني باحثة قيد التعلم و البحث.

الفصل الأول

فن الرسالة

فصل الكتاب في الزاوية

المبحث الأول: مفهوما الصورة و الآخر في التراث العربي و الغربي

تمهيد

أولاً: مفهوم الصورة

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

ثانياً: مفهوم الآخر

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

المبحث الثاني: نشأة الرسالة، أنواعها و خصائصها

تمهيد

أولاً: مفهوم فن الترسل

1. المفهوم اللغوي

2. المفهوم الاصطلاحي

ثانياً: نشأة أدب الرسائل و تطوره و مميزاته

1. الرسالة في العصر الجاهلي

2. العصر الإسلامي

3. العصر الأموي

4. العصر العباسي

ثالثاً: أنواع الرسائل و أصنافها

1. الرسائل الديوانية

2. الرسائل الأهلية-الإخوانية

3. الرسائل الأدبية

4. رسائل المزاوجة

رابعاً: الخصائص الفنية لأدب الرسائل

1. بنية المقدمات

2. بنية المضمون أو العرض

3. بنية الخاتمة

خامساً: شخصية كاتب الرسالة

المبحث الثالث: فن الرسالة في الأدب الجزائري القديم

بدايات الأدب الجزائري القديم

1. الفترة التاريخية و الزمنية لنهضة الأدب الجزائري القديم

2. مفهوم الأدب الجزائري القديم

3. بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي

ملخص

المبحث الأول: مفهوم الصورة و الآخر في التراث العربي و الغربي

لقد كانت مشكلة تحديد المصطلحات و استعمالاتها تخلق تضاربا في إدراك المفاهيم الحقيقية للألفاظ، كذلك الحال بالنسبة لمصطلح الصورة فقد برز عند العرب منذ العصر الجاهلي و لم يكن غريبا في معانيه عن تصورات الغرب، غير أنه ظهر في أوروبا نهاية القرن 19 ميلادي بحسب قول "سيسيل داي لويس": "أنه قد تم استخدام كلمة الصورة خلال الخمسين سنة الماضية كقوة غامضة"⁽¹⁾، لينتقل هذا المصطلح و يبرز في نقدنا الحديث بسبب التواصل بين الثقافتين العربية والغربية، لذلك فإن مفهوم الصورة اعتبر من المفاهيم النقدية المتسمة بتشعبات غزيرة حول تحديد مفهوم شامل لها، و في هذا السياق إشارة إلى أن الاهتمام بهذا المصطلح و العناية به تمتد جذوره إلى بدايات التفكير العربي و تبين أيضا أنه أسال حبر النقاد العرب والغرب معا و هذا يظهر مدى أهمية دراسته والبحث فيه لذلك نجد أن الصورة احتلت مكانة مهمة في الدراسات الأدبية كونها ركن من أركان النص الأدبي لذلك عرفت هذه الدراسات اتساعا واسعا و واضحا للبحث في مادتها و عناصرها.

(1) ينظر: سيسيل داي لويس: الصور الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجناحي، دار الرشيد الفليج، الكويت، ط1، 1969، ص 20.

أولاً: مفهوم الصورة

1. المفهوم اللغوي:

قبل أن نتحدث عن معنى الصورة، تجدر الإشارة إلى أنها قد وردت في القرآن الكريم كصفة لله عزوجل و كاسم من أسمائه في سورة الانفطار، قوله عزوجل: "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)"⁽¹⁾.

فالله هو المصور الذي صور جميع الموجودات في أحسن خلائقها، و أبدع تصويرها في أجمل مظاهرها، وبالتالي فالمعنى الذي يفهم من القرآن الكريم أن مفهوم الصورة يشير للمعنى المحسوس و المنظر و الهيئة الحسنة.

أما عند علماء اللغة فقد أفضت إلى مفهوم الشكل و التماثيل مثلما أشار إليها ابن منظور قائلًا: "الصورة في الشَّكْلِ، و الجَمْعُ صُورٌ، وَ صَوْرٌ، وَ قد صَوْرُهُ فَتَصَوَّرَ وَ تَصَوَّرْتُ الشَّيْءَ، تَوَهَّمْتُ صُورَتَهُ، فَتَصَوَّرَ لِي، وَ التَّصَاوِيرُ التَّمَاثِيلُ"⁽²⁾.

ننوه في هذا المفهوم أن الصورة تحمل معاني الشكل و الهيئة التي يتميز بها الشيء عن غيره إضافة إلى المعنى الذهني القائم على التوهم و الذي يكون منطلقه ذهن المتصور ومنه فهذا التعريف يجمع بين المعنى المحسوس و المعنى المرئي الظاهر وبالتالي فالصورة هي ما يتجلى للناظر في شيء ما أو مكان ما.

و أضاف الفيومي متقاطعا في تعريفه للصورة و متقاربا مع ما أقره ابن منظور بقوله: "التَّمَثَالُ وَ جَمْعُهَا صُورٌ... وَ تَصَوَّرْتُ الشَّيْءَ مَثَلْتُ صُورَتَهُ وَ شَكَلُهُ فِي الذِّهْنِ فَتَصَوَّرْتُهُ"⁽³⁾.

(1) سورة الانفطار: الآية 07-08.

(2) أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ضبط نصه و علق حواشيه، رشيد القاضي، دار الصبح، القاهرة، ط1، 2006، ج27، مادة (ص، و، ر)، ص 2523.

(3) أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، (د-ط)، 1996، ص 134.

إذا نظرنا إلى فحوى هذا التعريف بشيء من التأمل فإننا نلاحظ أنه ربط الصورة بالذهن و ما وجود به من تخيلات للأمر إلى أن يعود قائلنا: "وقد تطلق الصورة و يراد بها الصفة، كقولهم صورة الأمر كذا، أي صفته و صورة المسألة كذا أي صفتها"⁽¹⁾. أي أن الصورة تتعدد معانيها و تتجاوز ما يتعلق بالذهن و الخيال و التفكير لتصل منطق الوصف و التصوير، بمعنى أن صورة الشيء إذا ما نظر إليها فهي ترتبط مباشرة بتقديم وصف لها.

و نخلص من الآراء المطروحة في إيضاح مفاهيم الصورة أن معانيها قد اكتتفت الارتباط بالذهن نحو ألفاظ محددة كالصفة و ارتبطت بالهيئة مثل الشكل و البنية أو الوهم و الحقيقة، و عليه فالصورة ليست غريبة عن تصور العرب.

2. المفهوم الاصطلاحي:

تعددت تعريفات الصورة الاصطلاحية بتعدد الاتجاهات و النظريات إضافة إلى مفهومها الواسع و الشامل المتميز بحركية و خصائص مختلفة و متميزة عن بعضها البعض و قد طرح مفهوم الصورة في اتجاهين:

أ) الصورة في الدراسات العربية القديمة:

لقد اختلف النقاد من العرب في وضع مفهوم محدد لهذه^(*) اللفظة فبعدد دخولها مجال النقد اكتسبت دلالة اصطلاحية، و تظهر الكتب العربية القديمة أن هذا المصطلح كان حاضرا في الذهنية العربية غير أنه توارى خلف أحد المصطلحات الرئيسية التي اهتم بها النقاد و البلاغيين منهم، و هي قضية اللفظ و المعنى و إن كان هناك ذكر لهذه القضية فلا بد لنا من الحديث عن أبرز الباحثين فيها، واعتبر الجاحظ أكثر المتطرقين لهذه القضية

(1) المرجع السابق: ص 134.

(*) - يقصد باللفظة: الصورة

(اللفظ و المعنى الفني للصورة)، عندما أدرج مصطلح التصوير في سياق تعريفه للشعر فقال: "فإنما الشعر صناعة و ضرب من النسج و جنس من التصوير"⁽¹⁾.

بالتالي فالصورة لها علاقة باللفظ و المعنى أي يمكن أن يكون المعنى واحد لكن صوره مختلفة لذلك نجد أن عبد العزيز عتيق قد فسر حديث الجاحظ عنها "الصياغة وإحكام النسج في العبارة و تخير اللفظ و الوزن قد قصد به الصورة دون ذكرها"⁽²⁾.

أي أن الصورة يمكن أن تكون ظاهرة متجلية كما يمكن أن لها أن تكون مضمرة لا تفهم إلا بتحليل الأقوال و تفسيرها.

كما نجد قدامه بن جعفر يسير على منوال الجاحظ في تحديد مفهوم الصورة، فربطها بالمعنى و لم يبتعد عن هذا السياق كثيرا "إن المعاني كلها معرضة للشاعر والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة لأنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها"⁽³⁾.

إذن فالصورة تترجمها معانيها و تبرز ملامحها، فلكل معنى صورته الخاصة المستقل بها عن غيره من الصور و كل صورة ترد ضمن سياقها و تفهم من خلاله وبالتالي اللفظ هو أداة ترجمة للصورة، و إن كان قدامه في هذا التعريف قد ربط الصورة بكيان الشعر.

و يظهر أن الجاحظ و قدامه قد اهتموا في إيضاح الصورة بمعانيها اللفظية وتراكيبها اللغوية، و حصروها في إطار الصورة الأدبية، لنجد الجرجاني يخالفهما كاسراً الرتبة المتبعة في تعريفهم للصورة قائلاً: "معلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير و الصوغ فيه كالفضة و الذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في

(1) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، المجلد 3، 1945، ص ص 131-132.

(2) عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط2، 1972، ص49.

(3) أبو الفرج قدامه بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط1، 1979، ص14.

صوغ الخاتم في جودة العمل ورداءته أن تنتظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وضع فيه ذلك العمل و تلك الصنعة⁽¹⁾.

فهو يشير إلى النظم في العمل الفني كأن يحوز على الجودة و حسن التأليف وتجسيد المعاني في النفس بشكل صور و ضرب المثال بالفضة و الذهب و حسن العمل المتوفر فيهما و الذي لا يدرك إلا من خلال النظر إليهما و التدقيق في إنشائهما.

أما القرطاجني فهو يحصر مفهوم الصورة بالذهن و العقل و التصورات التي يحكيها العقل من خلال الخيال فيقول: "الصورة هي المعاني الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فإذا أدرك المعنى جُعِلَتْ له صورة في الذهن تطابق ما أدركه العقل و جعل له اللفظ المعبر لهيئة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين"⁽²⁾.

يظهر لنا أن فحوى هذا التعريف تركز على جانب المعنى والذهن والعقل وما يترجمه كون المعنى يشكل رسالة مشفرة في ذهن المتلقي والتي يترجمها العقل لتقدم الصورة الشكلية المتخيلة فلا بد من الفهم الصحيح للمعنى حتى يستطيع المرء رسم هيئة للصورة.

ب) الصورة في الدراسات الغربية:

لقد عرف رواد النقد الغربي مصطلح الصورة من أوسع أبوابه و تطرقوا إلى تحديد تفاصيله منطلقين من أدق المفاهيم التي اشتمل عليها، لأنه في نظرهم صعب و معقد بسبب تطوره عبر العصور، و من هنا نجد عدة تعريفات استقر عليها كوكبة من المهتمين به، حيث بين أفلاطون هذا المفهوم و ربطه بالتصورات الميتافيزيقية "وبالمثل فإن ربة الشعر نفسها تلهم بعض الناس أولاً، و من هؤلاء الأشخاص من تتعلق بأشخاص آخرين

(1) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 2000، ص 197.

(2) حازم القرطاجني: مناهج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتاب الشرقية، تونس، (د-ط)، 1966، صص18-19.

الذي يتلقون الإلهام"⁽¹⁾، و يقصد بالإلهام، الإلهام العقلي الذي ينتجه التصور الميتافيزيقي الذي يتعلق بربة الشعر التي تمكن الشخص من تصوير حالات المرء في أعماله الأدبية. أما أرسطو فإنه ألمح إلى أن الصورة عبارة عن تلوين فني لغوي يوظفه المرء في لغته للتأثير في الغير، و يعتبرها استعارة لا أكثر أي أنها ترتبط بالخيال "إن الصورة أيضا هي استعارة، إذ أنها لا تختلف عنها إلا قليلا فعندما يقال وثب كالأسد، نكون أمام استعارة"⁽²⁾.

فيظهر أنه علل معنى الصورة بالاستعارة و حصرها في القوالب الفنية أي أنه كسر قاعدة الشكل و الهيئة و جعلها مختصة بأدوات العمل الأدبي.

هذا و يذهب تورجنيف إلى أن مفهوم الصورة عبارة عن رسم حقيقي يعبر به المؤلف أو الشاعر عن الحياة "منتهى السعادة بالنسبة للأديب أن يصور الحقيقة بالضبط وفي قوة الحياة حتى و لو كانت لا تتطابق مع ميولاته الشخصية"⁽³⁾.

و يقصد هنا أن الصورة هي إدراك الحقيقة و أنها تتميز من شخص عادي إلى شخص أديب، فالشخص العادي له إمكانية تقديم طرح للصور كما يحب رؤيتها على عكس الأديب فهو مجبر على قول حقيقة الصور و إن كانت لا تتناسب مع ميولاته وأذواقه الشخصية.

يتبين لنا أنه بالرغم من تباين تعريفات الصورة عند الغرب إلا أن هناك قاسما مشتركا بين جل هذه التعريفات و هو الكشف عن المعاني الحقيقية لهذا المصطلح و التي تراوحت بين المعنى الفني و الشكلي لها.

(1) يحياوي زكية: الصورة الفنية في التجربة الرومانسية، ديوان أغاني الحياة للشابي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة مولود معمري، الجزائر، ص 11.

(2) محمد الوالي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي و النقدي، نقلا عن Aristobes, Rmetorica aagualr, Madrid ; 1986, p 240.

(3) مكارم الغمري: الرواية الروسية في القرن 19، دار المعرفة، الكويت، ط 7، 1981، ص 40.

ج) الصورة في الدراسات العربية الحديثة:

اختلف المحدثون من العرب في تحديد مفهوم اصطلاحى للصورة وذلك لاختلاف اتجاهاتهم و مدارسهم وقواعدهم، التي يستمدون منها منطلقاتهم الفكرية، ولعل ما زاد هذا الاختلاف حدة هو شمولية هذا المصطلح لما ينطوي فيه من تعابير مختلفة، ثم إن ميزة الفضول التي يمتلكها الإنسان ساعدته في تكثيف أبحاثه و جعلت من الأدباء يرسمون لقضية الصورة مفاهيم عديدة انطلقوا فيها بين متمسك بالقديم مقلد، و بين آخر مستقبل لكل ما هو جديد، فكان لهم الأثر العميق في تأطير حيز للصورة.

أشار عبد الله العلايلي إلى أن "الصورة في أساس تكوينها شعور وجداني غامض بغير شكل، بغير ملامح، تناوله الخيال و المؤلف أو الخيال المركب فحدده و أعطاه شكله أي حوله إلى صورة تجسده"⁽¹⁾.

و ننوه في هذا المعنى أن الصورة ترتبط بالكيان الداخلي الذاتي للفرد بحيث تكون بدايتها عبارة عن خيال و وهم لتتكون هذه الملامح قبل أن يتعرف عليها شكلا من خلال ما يوجد به خيال الفرد لينتقل بعدها لتقديم هيئة ملموسة بتجسيد الصورة، و في هذا الأمر يتقاطع مع الفيومي في الارتكاز على الخيال.

و في تعريف لمصطفى ناصف قال: "لفظة تطلق في الأدب للدلالة على كل ماله صلة بالتعبير الحسي و تطلق أحيانا على مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات"⁽²⁾.

أي أن أغلب الصور مستمدة من الحواس التي تنظم من خلال العبارات الموظفة في العمل الأدبي كونها وسيلة للتعبير عنه و هذا ما تحدث عنه أرسطو سابقا، وهو نفس الأمر الذي تحدث فيه جابر عصفور عندما أشار إلى أن الصورة "وسيلة تعبيرية لا تفصل

(1) الشيخ عبد الله العلايلي: الصحاح في اللغة و العلوم، دار الحضارة العربية، بيروت-لبنان، ط 1، 1974، ص744.

(2) مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، مصر-القاهرة، (د-ط)، 1970، ص 11.

طريق استخدامها أو كيفية تشكيلها عن مقتضى الحال الخارجي فهي أداة تعبير عن المعاني دون التحيز في كيفية التعبير⁽¹⁾.

أي أن فهم الصورة من خلال المعاني هو ما يمكننا من تشكيل رؤية عنها دون الابتعاد عن المعنى الحقيقي للفظ و هي من أدوات التعبير.

و قد قيل أن الصورة تعني "image" وهي شبيهة أو مماثل تنعكس فيه ملامح الأصل أو أبرز ما في هذه الملامح ويقصد بها الشكل⁽²⁾.

بمعنى أن الصورة هي كل ما يُرى بالعين المجردة و كل ما اكتسب هيئة تشبه هيئة أخرى أو تتقارب معها، مثلاً: الجمال لا يمكن رؤيته إلا عبر الصور و التقريب في مستوياته لا يتم إلا عبر الرؤية، لذلك فقد كانت الصورة هي التجسيد.

مما سبق يمكن لنا القول بأن مصطلح الصورة قد تداولت قضيته منذ القديم إلى الحديث، و تعددت مفاهيمه بحسب تصورات و رؤى المهتمين به، كما تمايزت عن بعضها البعض و تكاملت في الوقت ذاته، حيث بدا جلياً من خلال هذه المقاربات أن صياغة مفهوم محدد لهذا المصطلح شبه مستحيلة، و ذلك لاتساع آفاقه، فيظهر من كل تعريف أنه يركز على جانب واحد و بعد معين و يسقط جوانب أخرى، فهو ليس مجرد شيء مرئي أو شكل ملموس مثلما أقرّ بعض النقاد، كما أنه ليس مجرد ألفاظ و معاني ونظم حسن أو عبارة عن قوالب فنية تستمد من الخيال و الذهن بل هو كل هذا وأعم، كما قال أحمد الشايب: "الصورة هي الوسائل التي يحاول الأديب بها نقل فكرته وعاطفته إلى قرائه و سامعيه بطرق مختلفة حتى يستطيع كل قارئ استحضار صورة الشيء المذكور أمامه"⁽³⁾.

(1) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992، ص33.

(2) جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العالم للملايين، بيروت، ط 1، 1979، ص159.

(3) ينظر: عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط 3، ص 391.

إن مصطلح الصورة أشمل و أعمق من كل ما ذكر، كما أنه يملك طرق تؤدي وظائف مختلفة بحسب المقام الذي تبرز فيه.

ثانيا: مفهوم الآخر:

إن لفظة "الآخر" ليست جديدة على المعاجم العربية، بل هي قديمة قدم وعي الإنسان باختلافه عن غيره، فقد أصبح الآخر موضوعا و يبدو أمرا غير عادي شاغلا فكر الإنسان فلا يمكن للآخر أن يكون ما لم تتفطن له الذات و لا يمكن لصورة الآخر أن تتجسد دون وجود هذه الذات فهما أساسان في تكوين بعضهما، فبالنسبة للذات الآخر يشكل لوحة فلكلورية عن أمة برمتها منذ نشأتها إلى اندثارها، و نحن من خلال تتبعنا في كتب تاريخ الأدب العربي فإننا نلمح صورا للآخر عند العرب منذ العصر الجاهلي تراوحت بين الإيجاب و السلب فنجدها في أشعارهم و قصائدهم و خطبهم و حتى في مقاماتهم. وهذا ما جعل غالب حسن الشابندر يقول أن الآخر: "تحول إلى(*) موضوعة العصر على صعيد المجال الثقافي بين مختلف التيارات الدينية والفكرية و حتى الفلسفية"(1). أي أنه أصبح يحلل و يدرس في مختلف بنيات المجتمع و مستوياتها، لذلك فقد عرفت كتب اللغة و معاجمها و أفردت له مراجع أطالت الحديث فيه.

(*) في رأي أن يقول موضوع العصر.

(1) غالب حسن الشابندر: الآخر في القرآن الكريم، العراق-بغداد، (د-ط)، 2002، ص 35.

1. المفهوم اللغوي:

أشير إلى تعريف الآخر في لسان العرب على أنه "الآخر: بِالْفَتْحِ: أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ وَهُوَ إِسْمٌ عَلَى أَفْعَلٍ وَالْأُنْثَى أُخْرَى إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَعْنَى الصِّفَةِ، لِأَنَّ أَفْعَلَ مِنْ كَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الصِّفَةِ، فَالْآخَرُ بِمَعْنَى غَيْرٍ، كَقَوْلِكَ رَجُلٌ آخَرٌ"⁽¹⁾.

يتضح أن الآخر يقصد به ما دوننا و هو كل ما خالف الذات، و بالتالي فالتطرق للآخر منذ القدم يشير إلى مكانته وقيمته، و هذا ما جعل المحدثين يصبون أنظارهم على دراسته و الكشف عن هويته و معالمة.

2. المفهوم الاصطلاحي:

إن اعتبار الآخر لدى المحدثين هو المختلف ثقافة و فكرا، بمعنى المغاير تماما لكل ما تألفه الذات عن ذاتها و الذي لا يمكن حصره، كان لابد من معرفة هذا الاختلاف ومحاولة خلق روابط مشتركة تساعد على فتح أفق أخرى تقارب بين المجتمعات فلا يمكن لأي مخلوق أن يجد تكاملا في بيئته و يبقى محصورا فيها خاصة و أن الذات تسعى دائما لتجاوز أطرها و حدودها و هذه طبيعة الإنسان.

يقول البازغي في هذا الأمر: "الآخر في أبسط صوره هو مثل أو نقيض الذات أو الأنا و هو تجسيد لكل ما هو غريب و غير مألوف بالنسبة للذات"⁽²⁾.

أي أن الآخر هو عكس الذات و خلافها و هو كل ما خرج عن طبيعتها، فالآخر في أكثر معانيه شيوعا يعني شخصا غيرنا أو مجموعة مغايرة لذاتنا و التي من خلالها يمكن رسم اختلافاتنا و مكانتنا و ثقافتنا و حتى توجهاتنا، لأن الآخر عبارة عن ما هو عكسنا

⁽¹⁾ أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ضبط نصه و علق على حواشيه: خالد رشيد القاضي، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 2006، باب الهمزة، ص 74.

⁽²⁾ ميجان الرويلي و سعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط3، 2002، ص21.

في كيانه و جميع مجالات حياته و للظاهر لبيب حديث عن شخصيات الآخر و مميزاتها قائلًا: "لا يشكل الآخر مشكلة أو جحيماً"⁽¹⁾.

أي أن الآخر ليس بالضرورة شخصية تحمل معاني السوء و الفساد، أو حضوره يساوي حضور المشاكل والصعوبات، لذلك فإن مفهوم الآخر قد أثار كثيرا من الجدل وهذا ما جعل النقاد يوسعون دائرة المفهوم و جعلوها إشكالية في الدرس الأدبي مما جعل فوزي سعيد عيسى يوضح مفهوم الآخر قائلًا: "الأجنبي المضاد للذات العربية و الذي فرضت الظروف السياسية والاجتماعية و الجغرافية والحضارية أن يكون هناك اتصال وتماس و علاقات و حوار بين الطرفين"⁽²⁾.

في هذا المعنى يتضح أن الآخر محدد في مفهومه ويقصد به كل ما خالف الذات العربية وفكرها و حضارتها في حضور العلاقات مع الآخر الغربي و ظهر ملامحها وبروزها بين الثقافتين العربية و الغربية.

لذلك يمكن القول أن أية صورة هي انعكاس لـ "الأنا" سواء كانت تجسد اختلافا للآخر مقابل الأنا، أم لقاء الآخر يشبه الأنا، و بذلك تعد هذه الصورة فعلا ثقافيا يقدم تفاعل الأنا مع الآخر، فتعايش تفاصيل الحياة الاجتماعية و الفكرية و الروحية بكل صدقها وعفويتها و بالتالي يمكن لنا أن نستشف العلاقة الموجودة بين الصورة و الآخر.

(1) مجموعة من المؤلفين: صورة الآخر ناظرا و منظورا إليه، دار الملايين، بيروت، ط1، 1999، ص 227.

(2) فوزي سعيد عيسى: صورة الآخر في الشعر العربي، تدقيق: عبد العزيز جمعة، دار النهضة العربية، الكويت، ط1، 2011، ص 08.

المبحث الثاني: نشأة الرسالة، أنواعها و خصائصها

لقد كان للعرب مقومات حياة فكرية و لغة ناضجة و معارف و آداب راقية حفلت بفنون متنوعة و أجناس مختلفة انقسمت إلى شقين بارزين هما النثر و الشعر، فكانت قضية الشعر معروفة و ظاهرة الوضوح من خلال المؤلفات الكثيرة فيها، كون العرب عدته ديوان لها و اعتبرته دستور لحياتها، أما قضية الخطاب النثري فقد أفرزت تساؤلات عديدة في قصة نشأته و تطوره و مدى اهتمام النقاد العرب القدامى بهذا اللون، و المعلوم أن جل هذه التساؤلات كانت نتيجة للمكانة التي تبوأها الخطاب الشعري في نفوس العرب و المكانة المرموقة التي اكتسبها و هذا أدى إلى خلق قضية نقدية اعتبرت من أهم القضايا المطروحة حول أسبقية الظهور: الشعر أم النثر؟ و لماذا؟ و هل للنثر العربي وجود أم لا؟ و قد كان للنقاد وقفة مطولة في مناقشة هذا الأمر فبرزت اتجاهات مختلفة ومتضاربة الآراء، لكن يمكن القول بصفة عامة أن سبب ضعف النثر راجع لقلة ما وصل إلينا من مصنفات و مؤلفات خاصة فيه.

و تكشف كتب تاريخ آداب العرب عن جميع الملابسات و توضح أن النثر العربي و على امتداد عصوره قد رُصع بألوان و أجناس مختلفة ظهرت بواكره منذ فجر الجاهلية فالحقائق الموثقة التي تسطرها هذه الكتب تؤكد أن للعرب ملامح في النثر تتدرج ضمن لوائه فنون أخرى لعل أبرزها: الخطابة، و الرسائل و المقامات و الوصايا و المناظرات و القصص و الكثير منها.

و ما يهمنا في حديثنا عن النثر هو جنس الترسل، أو فن الرسائل، فبالرغم من أن النثر قد كان خاضعا في بدايته للنزعة الشفاهية إلا أنه تجاوز هذه المرحلة ليدخل حيز الكتابة و هذا ما سنقوم بالكشف عنه و إدراك مراحل من خلال التعرف على الرسالة كلون نثري عبر العصور، لذلك يمكن القول أن الكتابة كانت المؤشر الأول لرقى فن

الترسل و بلوغه عظمة فنية ترقيه لأن يصبح من الأعمال المدروسة، فالكتابة تشكل ملاذا و فضاءً فسيحا لصاحبها خاصة و أنها جزء للتعبير عن النفس.

فما مفهوم الرسالة؟ و ما هي أنواعها و خصائصها و سماتها؟ و كيف كانت نشأها على مر عصور الأدب العربي؟

أولاً: مفهوم فن الترسـل:

من الأجناس الأدبية المعروفة في النثر الفني، الرسالة أو فن الترسـل و التي يمكننا القول أنها تأتي على رأس الأجناس الأدبية ذات الصبغة الكتابية الممثلة لعصر التدوين والكتابة خاصة و أنها تتدرج ضمن دائرة التعبير عن الذات و تبليغ ما في النفس و هذا ما كانت العرب تتقن إجادته بما يتناسب مع صفاء ذهنهم و سلامة طبعهم.

وقد عرفت الرسالة منذ القدم، منذ أدرك الإنسان أن عليه التواصل مع الأشخاص واستعلام أخبارهم و أحوالهم، أو تبليغ الشيء وبثه ونشره و إظهاره.

و قد تحدثت المعاجم اللغوية عن معنى هذا الجنس في طياتها:

1. المفهوم اللغوي:

يقول صاحب البرهان "الترسلُ من ترسلتُ أترسلُ ترسلًا، و أنا مُترسلٌ، كما يقال: تَوَقَّفتُ بِهِمُ اتَّوَقَّفْتُ تَوْقَفًا، و أنا مُتَوَقَّفٌ لَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَنْ تَكَرَّرَ فِعْلُهُ فِي الرِّسَالِ و يقال أُرْسِلَ يُرْسَلُ إِرْسَالًا وَهُوَ مُرْسِلٌ، و الاسم الرسالة، أو راسلَ يُرَاسِلُ مُرَاسَلَةً و هو مُرَاسِلٌ، و ذلك إن كان هو ومن يُرَاسِلُهُ قد اشتركا في المُرَاسَلَةِ، و أصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يُرَاسَلُ به من بعيد، فاشتق له اسم الترسـل و الرسالة من ذلك"⁽¹⁾.

فالرسالة اسم مشتق من الترسـل و الباعث بالرسالة يسمى مترسل و مرسل والرسالة تكون مشتق من الترسـل و الباعث بالرسالة يسمى مترسل و مرسل والرسالة تكون بين شخصين بعيدين إما فراقا أو ارتحالا و هذا ما يشير إليه هذا المفهوم اللغوي، كونه قد

(1) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفي محمد شرف، دار الصحو، القاهرة، (د-ط)، 1929، ص 153.

لخص لنا بعض من الأجزاء التي تقوم عليها الرسالة وهي: المرسل، المرسل إليه، الرسالة.

2. المفهوم الاصطلاحي:

إن استطعنا القول بأن الرسالة من الفنون القولية ذات الأهمية البالغة في حياة الأفراد و الشعوب، و أنها وسيلة تعبير و جسر تواصل بين الأفراد فقد نالت نصيبا وافرا من لدن الأدباء و النقاد حيث التفتوا لهذا الجنس و أفراد معاني و تعاريف تكشف عن ما يحمله لفظ الرسالة من مدلولات.

لذلك و منذ القدم اهتم النقاد القدامى بتأطير هذا الفن، يقول صاحب الصناعتين: "الرسالة جنس يشترط فيه الجودة والإتقان لأنه يقرأ و يتأمل"⁽¹⁾.

أي أن الرسالة من الفنون الكتابية التي تتميز بمعايير أسلوبية يوظفها الكاتب أو باعث الرسالة، كالجودة في التعبير و إتقان الألفاظ و حسن تخيرها، ذلك أن المتلقي سيدركها من خلال قراءته لها و تأمله فيها، و لذلك وجب أن تحوز على معايير الدقة والإتقان في الكتابة فيمكن لنا القول من خلال هذا الطرح أن فن الرسالة يفرض على الكاتب إتباع طريقة معينة خاصة للكتابة.

وفي مفهوم آخر أقره أحد رواد هذا اللون و منظرية من حيث المفهوم والخصائص و الشروط، و الذي أوعز النقاد الفضل له في الارتقاء بأدب الرسائل في العصر العباسي و الذي نهج على نحوه اللاحقون المهتمون به، قال عبد الحميد الكاتب: "هي فن بليغ من فنون النثر أداته القلم وعماده التجويد والتعذيب واصطناع الصور الأدبية التي تحدث في النفس ارتياحا و إعجابا و تبعث فيها نشوة وزهاء"⁽²⁾.

(1) أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: مفيدة قميحة، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1981، ص 228.

(2) ينظر: محمد عبد المنعم الخفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص232.

و أحسب من هذا التصنيف الظاهر في قوله أن الرسالة حتما جنس أدبي كتابي يضم من المعاني حسن البلاغة و براعتها، و أرقى الألفاظ وأجودها، وجيد التوظيف من التشابيه و الصور البديعية حتى تستميل نفس القارئ و تحدث فيه تأثيرا بالإعجاب الذي يؤدي إلى بعث النشوة و الفرح.

و تؤكد الكتب و المؤلفات أن لهذا الفن النثري كُتّاب برعوا فيه و أتقنوا الإجابة في مؤلفاتهم عبر العصور أشهرهم الجاحظ حيث ظهرت له عدة رسائل منها رسالة التريب و التدوير، رسالة المعاش و المعاذ، و رسائل ابن المقفع المتميزة بأسلوب راقى أشهرها الأدب الصغير و الأدب الكبير، و رسائل ابن زيدون و أبي العلاء المعري، وغيرهم كثيرون أبدعوا فكان لهم الفضل في وضع الأصول الكبرى لهذا الجنس وموازاته مع الفنون الأخرى حتى أصبح لا يقل أناقة عن الشعر و لا الخطابة.

لذلك فإن القدامى قد اهتموا اهتماما جليا بالرسالة و إن كان لنا تتبع ضيق ومحصور لأقوالهم و حديثهم عنها فذلك لاتساعها في مؤلفاتهم و التي لا يكاد يكفي الوقت المخصص لنا لدراستها.

إذن فقد اشتملت الرسالة بحسب القدامى على جميع المؤهلات التي ترقىها إلى مجال الدراسة، ذلك أنهم قد حددوها في كونها جنس أدبي نثري كتابي له طريقة كتابة محددة ومعينة وله أدواته التقنية الخاصة به و القائمة على فن الأسلبة التي من أبرز خصائصها: أناقة اللفظ و جزالة التعبير و حسن التركيب.

وكما كان للقدماء دور متميز في كشف اللبس و الغموض عن هذا الجنس الأدبي فإن المحدثين لم يتوقفوا عند حدود ما أقره سلفهم و بذلوا جهدهم لتطوير هذا الفن و تقريب صورته في عصرهم فنجد العديد منهم قد جعل مجال بحثه في هذا اللون و أفرد زيادات وإن كان منطلقا في أساسها من القضايا القديمة إلا أنه ترك لمستته الخاصة التي تميزه عن غيره في هذا المجال.

يقول عبد الملك مرتاض: "الرسالة جاءت من الترسل، و هي إرسال لمخبات النفس و هو أجسها خارج مدى صوت المرسل أو اللفظ المدبج"⁽¹⁾.

هذا الطرح أقرب إلى المفهوم النفسي منه إلى المفهوم الأدبي فهو يشير إلى أن الرسالة تعبير عن مكنونات الذات و خلجاتها و عواطفها و هي رصد للشحنات النفسية الذاتية الشعورية البعيدة عن الحديث أو البوح بها بالكلام باستعمال الألفاظ المنمقة وغيرها، و كأن الرسالة هي شيء يرد بعفوية بعيد عن المشافهة و في ذلك إشارة لأنها جنس كتابي.

و هناك من الدارسين من يرى أن الرسالة قد تتقاطع مع الخطابة في بعض عناصرها و تتشاكل معها في بعض الأمور الفنية و هو ما أقره طاهر حجار بقوله: "الرسالة وسيلة تخاطب، و هي بديلة عن الأقوال التي يمكن أن يتناقلها و يتبادلها متخاطبان أثناء الحوار"⁽²⁾.

أي أن الرسالة تضم عنصرا من عناصر الخطابة إلا أن هناك اختلاف بين الشخصين (الخطيب في الخطابة، و المرسل في الرسالة) في عدة خصائص، كون الخطيب في الرسالة هو المرسل و هو غائب جسديا و حضوريا لكنه حاضر ذهنيا من خلال ما يعرضه أسلوبه في الرسالة على عكس الخطيب كونه هو من يتولى مهمة التبليغ.

(1) عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، (د-ط)، 2009، ص 91.

(2) مجموعة من الأساتذة: الأدب و الأنواع الأدبية، ترجمة: طاهر حجار، دار الكتب العلمية، دمشق، ط1، 1985، ص219.

ثانياً: نشأة أدب الرسائل و تطوره و مميزاته

كان للعرب آراء في الخطاب النثري بدت أولية ارتجالية منذ العصر الجاهلي، فبالرغم من قلة اهتمامهم بالنثر مقارنة بالشعر غير أن هذا لا يمكن أن يكون سبباً لإنكار اهتمامهم به أو تجاهله، و نظراً لاتساع الحقبة الزمنية المهمة بألوان الأجناس الأدبية كان لابد لنا من تحديد الفترات التي مر بها فن الترسل و رصد تطوراته عبر هذه العصور، لذلك ارتأيت أن أوجه هذا التتبع حول أهم العصور في تاريخ الأدب العربي منطلقة من العصر الجاهلي إلى عصر صدر الإسلام فالأموي و العباسي.

أما عن جنس الرسالة في العصر الحديث فستكون لي وقفة خاصة معه في الأدب الجزائري القديم و تحديداً في عهد الدولة الموحدية.

1. الرسالة في العصر الجاهلي:

لقد شاع بين كتّاب العرب عصراً بعد عصر أن الجاهلية هي عهد الجهل و الأمية والتوحش البعيد عن كل رقي و تطور، "وليس الأمر كذلك فيما نرى و يرى كثيرون من علماء العصر الحديث"⁽¹⁾، كما أُقرَّ أن العرب الأولى عرفت الكتابة و كان لهم عدد كبير من معلمها مثل "الحكم التقفي و أن أدواتها كانت الجلود و العسيب"^(*) و الحجارة و عظام الكتف وللتخطيط القصب و المداد"⁽²⁾.

فإن كنا نستنتج شيئاً من هذا الكلام ونترك العنان لخيالنا و فكرنا، أفلا يمكننا طرح التساؤلات نحو أن ما كان يكتب أيمن أن تكون رسائل؟ و لم لا، فبحسب كارلو نينو: "مادامت العرب قد عرفت النثر بألوانه فيمكن لجنس الرسالة أن يكون قد حظّر في تلك الحقبة كغيره من الأجناس الأخرى"⁽³⁾.

(1) حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط1، 1986، ص55.

(*) العسيب: هي جريدة أو جردة النخل تنزع و تجفف لغرض الكتابة.

(2) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار الصحوة، القاهرة، (د-ط)، 1956، ص 54.

(3) ينظر: كارلو نينو: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر بني أمية، تقديم: طه حسين، دار المعارف، مصر، ط2، 1911، ص ص 19-20.

و على الرغم من غياب وثائق قديمة تؤكد معرفة الجاهليين لهذا اللون النثري إلا أن بعض الباحثين قد أشاروا في أقوالهم لإمكانية وجوده "إن الرسائل التي وصلت إلينا من العصر الجاهلي كانت شبيهة بالخطب لكن هنالك فارق بينها وبين الخطب غير أنه قليل جدا"⁽¹⁾.

من هذا المنشأ تتأكد و تتشكل حتمية لوجود الرسائل في العصر الجاهلي لكنها أقرب للخطابة وهذا يعني عدم استقلاليتها كجنس له خصائصه في تلك الفترة، و بالتالي نقع في نفس إشكالية عدم التدليل عليها بالوثائق، لكن بتتبع كتب التاريخ التي تحكي عن معارف عرب الجاهلية يمكن لنا استشعار ملامح لفن الترسل ويمكن القول "أنهم عرفوا الرسائل الأدبية و تداولوها فيما بينهم"⁽²⁾.

و أود الإشارة إلى أن هذه الأقوال التي أفردتها أصحابها في كتبهم تبقى مجرد آراء دون تقديم أمثلة عن هاته الرسائل لكن أبحاثهم وتقصيائهم أفضت بهم إلى هاته الاستنتاجات.

بالتالي فعدم وجود تصريح مباشر إلى أن هاته الرسائل قد عرفها العرب الأوائل هو غياب توثيق لها و تدوينها، غير أن بعض الكتب ألمحت إلى وجود فن الرسالة في الجاهلية بغرض أن التواصل الموجود بين العرب و إطلاعها على أخبار بعضهم البعض إن كان الأمر بطريقة بدائية إلا أنها عدت ملمحا من ملامح الترسل نحو: الرسائل الإشارية، والرسائل الشفوية.

و قد عرف عن الشخصية الجاهلية الاعتماد على العاطفة الجياشة و شاع فيما بينهم قصص الحب والعذاب، و قضايا الثأر و الانتقام و بكاء الحبيب و فراقه لذلك قيل بأنهم عرفوا الإخوانيات و قصد بها:

⁽¹⁾ عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981، ص 225.

⁽²⁾ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط24، 2003، ص 398.

الإخوانيات: سميت برسائل الحب غير أنها كانت ترد في شكل قصائد شعرية⁽¹⁾.

فبالرغم من اعتبارها نوعا من الرسائل لنقل عواطف الحب بين المحبين إلا أنها كانت ترد شعر لا نثرا و هذا يفتح بابا آخر للتشكيك حول إمكانية اعتبارها رسائل أم قصائد.

مما ورد ذكره سابقا يمكننا أن نخلص إلى أن قضية وجود فن الترسل في العصر الجاهلي أو عدمه تشكل قضية متضاربة الآراء حولها، ذلك أن كل هذه الأبحاث تبقى مجرد نظريات لم تدعم بوثائق أو حجج قوية تثبت حقيقة كيان هذا اللون في العصر الجاهلي، فكل المصادر التي تتناول الفنون النثرية لا تتحدث بطريقة واضحة عن هذا اللون و إن تحدثت لا تلحقه بنماذج لرسائل متبادلة بين شخصيات تلك الفترة، و إن كان هناك وجود لبعض ملامحه لكننا بالتدقيق في خصائص هذا اللون التي تحدثت عنه العصور اللاحقة للعصر الجاهلي فإنه لا يمكننا عده كذلك.

2. العصر الإسلامي:

لقد كان العصر الإسلامي عصر انفتاح و تلقي للدين الجديد و عصر انتقال في حياة البشرية جمعاء من الظلمات إلى النور، خاصة وأن الدعوى إلى اعتناقه كان لا بد لها من وسيلة تحث على الإقناع به و استمالت القلوب إليه لذلك نشأت الرسائل على نمط جديد بتشجيع من النبي الكريم، محمد صلى الله عليه و سلم، فانتشرت الرسائل و شاعت الكتابات بينهم بحكم تباعد العرب في مواطنهم ونقل أخبار الدين الجديد فيما بينهم، لذلك "إن آثار الإسلام في الفنون الأدبية من جهة عقيدته"⁽²⁾، كان له شأن كبير في تغيير مسار الترسل.

(1) زكي مبارك: النشر الفني في القرن الرابع، دار السعادة، القاهرة، ط1، 1934، ص170.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط20، 2002، ص315.

من أهم مميزاتها و خصائصها في هذه الفترة⁽¹⁾:

- العناية الشديدة باختيار الألفاظ و تنسيقها و دقة التعبير.
- حيازتها على عنصر البلاغة و البعد عن السجع بصفة عامة.
- استحضر المعاني الظرفية و المستحبة.
- وهذا ينم عن الذوق الفني لكتاب الرسائل الإسلامية، بالإضافة إلى أجزاء أخرى نحو⁽²⁾:
- الوقوف عند الغرض و البعد عن الطول الشديد والمبالغة.
- البعد عن الضمائر و استعمالها ومقت البدعة.
- البداية بالبسملة و الحمدلة و توظيف القرآن و الأحاديث النبوية.

غير أنها تغيرت في عهد الخلفاء و حازت على مؤهلات جديدة و أصبحت منمقة وطويلة و اختلفت فيها الأغراض ذلك أن في بدايتها كانت للتعريف بالدين الجديد ووسيلته، لتصبح وسيلة للتواصل فيما بينهم سواء فيما يخص الحروب وتنظيم الجيوش وغيرها، و من أبرز أنواعها: الرسائل الدينية، الوعظية، الاخوانية، وظهر لها كتابٌ كثير، أبرزهم الرسول صلى الله عليه و سلم و الخلفاء الراشدون.

ونخلص من كل هذا إلى أن الرسائل قد وجدت في العصر الإسلامي و كانت أبلغ وسيلة للتعريف بالدين الإسلامي الجديد على مر تقاسيمه.

3. العصر الأموي:

برز العصر الأموي في هيئة نظامية عنيت بتدوين أخبار الجاهلية و أنسابهم والاهتمام بحركة جمع العلوم و ترتيبها، فكان النثر عندهم صناعة لها أصولها و مناهجها وقواعدها، و كشفت أنواع عديدة في باب النثر أهمها الرسائل، فقد عرف الأمويين فن الترسل و أفردوا له خصائص ومميزات، و كان ديوان الرسائل عندهم يشبه رئاسة الوزراء في أيامنا و كتب التاريخ تزخر برسائل عديدة أثرت عن هذا العصر كتبت من

(1) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط11، 2002، ص 465.

(2) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار النهضة، مصر، (د-ط)، (د-ت)، ص 198.

قبل فرق الخوارج و الشيعة و الطوائف الموجودة في هذه الدولة و من قبل الخلفاء والولاة خاصة، و أنهم كانوا لا يفوتون حدثا دون أن تتقاطر الرسائل كالغيث في صده، فأصبح للرسالة أصول و مناهج، يقول عمر فروخ: "أصبح للرسائل مطالع و تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم و توجه إليهم"⁽¹⁾.

في هذا المفهوم إشارة لطريقة التي تكتب بها الرسالة فهي حازت على الحمد في مطالعها إلا أنها لا تتشابه جميعا، فكان أسلوب صياغتها يختلف بحسب الوجهة المرسل إليها و مكانة المرسل إليه و القضية المطروحة فيها، ووضعت لها خصائص أجملت في⁽²⁾:

- إحداث التوازن الموسيقي في الكلام: أي حدث فيها شيء من السجع.
- التألق في الأسلوب و التزين بالصور الدقيقة و الألفاظ الغربية أي إضافة الصبغة الفنية للتعبير و الجمل.
- أصبح لها خواتيم و المقصود ختم المرسل و توقيعه كما أصبح فيها شيء من الموازنة بمعنى التنسيق في التركيب اللغوي.

ثم إن الرسائل الأموية تطورت من كونها استملاء لتصبح الكتابة نفسها نتيجة لازدهار الكتابة و يشير شوقي ضيف بحديثه عن بعض خصائص الرسائل الأموية "لقد كانت الرسائل في عهد بني أمية تنبئ عن دقة الكاتب وتخير ألفاظه و كيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة و هو لا يقتدر على اللفظ فقد بل يجلب المعاني الظريفة و يعرضها في أسلوب الازدواج الذي تزينه الاستعارات و الطبقات"⁽³⁾.

بمعنى الرسالة صورة لبراعة الكاتب و حذاقته الأدبية فهي أرقى مظاهر الجمال الفني للصور البيانية و البلاغية كون الكاتب يوظف فيها كل ما هو جيد و أنيق في حدود

(1) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ص 375.

(2) المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي الثاني، ص 463.

لغوي مهذب، كما أن كتاب هذا العصر كانوا من أصحاب البيان و اللسان، إذ كان كل واحد منهم يظهر براعته في تصريف الألفاظ و صياغة المعاني.

وقد حفلت رسائلهم بموضوعات و أنواع كثيرة أنشأت بحسب المقام المطلوب منها: السياسة و الوعظية و الشخصية و"في رسائلهم الوعظية و الشخصية دونوا الكثير منها"⁽¹⁾، و الرسائل الإخوانية⁽²⁾.

وبالتالي فالعصر الأموي قد عرف فن الترسل و خلف فيه المنشآت والمؤلفات وبرز فيه أدباء من خيرة كتاب العصور.

4. العصر العباسي:

كانت اللغة العربية تسير حيثما كان نفوذ الدولة العباسية فكان هذا العصر يترك آثاره أدبه أينما وجد، و فيه نبغت الفنون وازدهرت الآداب و ثقفت العقول و هذبت الأنفس وفيه عاش أئمة الأدب والفكر، فنشطت الكتابة نشاطا واسعا تهافت إليها مئات من أصحاب الأقلام خاصة و أنها أصبحت وسيلة للترقي لأرفع المناصب في الدولة.

فبرزت الرسائل كأهم الوسائل التي يبلغون بها معارفهم و عرف النثر نهضة لا مثيل لها في تاريخ العرب و يوعز النقاد هذا الأمر أن الدولة "كانت خليطا بين شعوب متعددة تحمل جانبا عظيما من العلم والحضارة"⁽³⁾، بمعنى أن هذا التنوع في ثقافات الشعوب التي تحتل تحت لواء الدولة العباسية جعلها تتبادل المعارف و العلوم و هذا الأمر ساهم في ثراء الألوان الأدبية.

(1) المرجع السابق: ص 463.

(2) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ص 375.

(3) بطرس البستاني: أدباء العرب في العصر العباسية، حياتهم، آثارهم و نقد آثارهم، دار الفكر اللبناني، بيروت- لبنان، ط1، 2011، ص20.

لذلك فقد عرف هذا العصر من بدايته إلى نهايته أدبا عميقا في فن الترسل و تطور مرات كثيرة بحسب توالي الحكام على هذه الدولة، فامتازت كتابة الرسائل بالعديد من الخصائص برزت في الأساليب و المعنى و اللفظ نحو⁽¹⁾:

- التألق في الألفاظ و حسن تخيرها و البعد بها عن الغرابة.
 - استعمال المحسنات البديعية و الإكثار من ألوانها مع وضوح العبارة و جمال السبك و قوة الأداء في تخير الأساليب.
 - اختراع المقدمات و الإفراط في استعمال طرفي الإيجاز و الإطناب و شدة الإبداع و تلاؤمه مع الخيال.
 - الإكثار من التهذيب و التنقيح و توخي الصحة و السلامة في توظيف التعابير⁽²⁾.
- ويظهر أن الشرط الأساسي في كتابة الرسائل في عهد العباسيين هو القدرة على الإبداع في فن الكتابة و أن يكون لكتابها المعرفة التامة بأساليب الكتابة من حسن اختيار الألفاظ و قوة الأداء و يسر التعبير و القدرة على تصوير المعاني بأناقة، إلا أن شوقي ضيف فقد أكد على حتمية معرفة كاتب الرسالة: "الأحوال المجتمع و ظروفه كما يجب أن يدرك مختلف العلوم"⁽³⁾.

أما موضوعاتها الأساسية فقد اهتمت بكل ما يتصل بالدولة من شؤون السياسة وأمور النظام و تصريف أعمالها فكانت تبعث من الحكام إلى عمالهم في إطار الاهتمام بالدولة و لذلك برزت بصفة كبيرة الرسائل الديوانية عندهم.

من هذا المنطلق يمكن لنا أن نستنتج أهم أنواع الرسائل التي اشتهروا بها و هي: "الرسائل الديوانية و الرسائل الإخوانية"⁽⁴⁾، وذلك راجع لكثرة الدواوين و كتابها الذين

(1) عبد المنعم الخفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، ص 316.

(2) المرجع السابق: ص 316.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط 16، 2004، ص 173.

(4) ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط 12، 2001، ص 276.

أحسنوا الصناعة فيها، كما أشار الجاحظ: "إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة و على المخارج السهلة والديباجة الكريمة و على الطبع المتمكن والسبك الجيد و كل كلام له رونق على المعاني"⁽¹⁾.

وفي هذا القول جل ما على الكاتب أن يعتمد في كتابه رسائله من تحير الألفاظ فتكون راقية سهلة النطق سلسلة على اللسان، متراكبة البناء منسجمة واضحة و على قدرة عالية من إفهام المتلقي.

و من أشهر كتاب هذا الفن في تلك الحقبة عبد الحميد الكاتب الذي ارجع له الفضل في تكوين فن الرسائل، ابن المقفع، الجاحظ، و كثيرون غيرهم، كما لا يخفى أن في هذا العصر كان أول الخلفاء و الأمراء الذين أضافوا لمسة دينية على الرسائل "ال خليفة هارون الرشيد و في رواية أخرى يحيى البرمكي إذ أقر أن تبدأ الرسائل بعد البسملة بالصلاة على النبي محمد صلى الله عليه و سلم"⁽²⁾.

و ما نخلص إليه أن هذا العصر قد زخر بالعديد من الرسائل و عرف هذا الفن من أوسع أبوابه و كان عصر تميز أدبي بحث بلغت فيه الرسالة الرقي و سمو و إن كان حديثنا هذا عن أدب الرسائل في العصر العباسي قد كان محصورا و قصيرا ذلك أن مجال البحث في هذا العصر متشعب كثيرا.

ثالثا: أنواع الرسائل و أصنافها

إذا كانت الأجناس الأدبية يقوم ضمنها إرسال الرسالة الأدبية إلى متلق في معظم الأطوار، فإن الرسالة في معترف عادات الظروف التي عرفت بها، يقوم الأمر عبرها على إرسال رسالة إلى متلق معلوم، لذلك فقد شكلت الرسائل في التراث العربي بأنواعها و أغراضها المختلفة كما هائلا من مجموع فنون النثر الأدبي فكانت هناك أسباب عديدة

⁽¹⁾ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان و التبیین، تحقيق: درويش جودي، دار إحياء التراث، بيروت، (د-ط)، ج1، 2003، ص 224.

⁽²⁾ ينظر: شوقي ضيف: تاريخ آداب العرب في العصر العباسي الثاني، ص 491.

ساهمت في تنوع هذه الرسائل و تمايزها عن بعضها البعض عبر مختلف العصور، فما المقصود من كل نوع و ما هي خصائصه؟

من أهم هذه الرسائل ما تحدثت عنه المؤلفات و أشارت إليه بدقة و هي: الرسائل الإخوانية أو الأهلية، الرسائل الديوانية أو الرسمية، الرسائل الأدبية و رسائل المزاجية.

1. الرسائل الديوانية:

انبثق هذا النوع و تشكل في خضم التطورات السياسية بين العصور فهو يحوز على قدر كبير من خدمة الأهداف السياسية و عرفت على أنها: "تسمى الرسائل السلطانية وهي الرسائل الصادرة عن الحكام و السلاطين و الولاة و الخلفاء و الأمراء أو دواوين إنشائهم إلى الذين يضارعونهم في المنزلة أو شارة الحكم"⁽¹⁾.

من هذا المفهوم يظهر أن الرسائل الديوانية هي تلك الرسائل الصادرة عن ديوان الخليفة و حاكم الدولة إلى نظرائه و أصحاب المناصب الرسمية في دولته.

كما أنها عرفت بكونها الرسائل: "التي تتناول تصريح أعمال الدولة و ما يتصل بها من تولية للولاة، و أخذ البيعة للخلفاء، و ولاة العهود و من الفتوح والجهاد و مواسم الحج و الأعياد و الأمان و أخبار الولايات و أحوالها و الوصايا و تدابير السياسة"⁽²⁾.

إن في مرتبطة ارتباطا تاما بإطار الدولة و لا تكتب إلا لخدمتها و إفادتها و في هذا التعريف إشارة لبعض موضوعات الرسائل الديوانية يمكن استنتاجها كالاتي: تعيين الولاة، الحديث عن الحركات الجهادية، الإعلام بأخبار الغزوات و الفتوحات، التهنية على الانتصارات، الوعظ في شؤون السياسة.

(1) محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، المضامين والخصائص الأسلوبية، ليبيا، المجلد 1، ط 1، 2004، ص 102.

(2) مصطفى بشير القط: مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازوري العلمية، عمان -الأردن، (د-ط)، 2009، ص 124.

و لارتباط الرسائل الديوانية أو الرسمية بالسياسة كانت من أهم ما احتفظت به المصادر لأنها تشهد على أحداث سياسية، و قد مثل لهذا النوع كثيرا في العصر العباسي كونه عصر سياسة بامتياز بالإضافة لما لاقته الكتابة من إحسان و إجادة في صناعتها لكن هذا لا يعني أنها قد غيبت في عصور أخرى.

ولقد أفرد لهذا الصنف مجموعة خصائص وحددت لها بعض القوانين جمعها أحمد الشايب في قوله: "الرسالة الديوانية هي ما تصدر عن الدواوين أو ترد إليها خاصة بشؤون الدولة تيسيرا للعمل و تثبيتا للنظام العام، و يغلب على هذا النوع الدقة و السهولة في التعبير و التقيد بالمصطلحات الحكومية و الفنية و المساواة في العبارة و البراءة من التهويل و التخييل"⁽¹⁾.

يتضح أن بداية هذا التنظير هي تحديد لمفهوم الرسالة الديوانية على أنها وثيقة رسمية لتسهيل الحياة السياسية و العلاقات النظامية لينتقل لذكر خصائصها التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- توظيف الألفاظ السهلة و المصطلحات الخاصة بالنظام الحكومي للدولة.
- التنسيق بين معاني العبارات و تراكيبها و انسجامها.
- البعد عن تضخيم الأمور و تفخيمها و الابتعاد عن الخيال الزائد في توصيل الأخبار.

و من أمثلة هذا النوع رسالة محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية عندما خرج على المنصور فكتب إليه المنصور قائلاً:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد:

(1) محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص 103.

فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم... فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق و العهد والأمان ما أحببت و السلام"(1).

فهي رسالة خاصة أشار بها أمير المؤمنين للخارج عن سلطته محاولا فيها تحذيره من أخطار هذه الفعلة و هي رسالة تحمل مضمونا سياسيا. أما النوع الثاني الذي خصت به الرسائل فهو نوع كان أقرب إلى نفس الإنسان من النوع السابق، عرف بـ"الرسائل الإخوانية أو الرسائل الأهلية.

2. الرسائل الأهلية-الإخوانية:

من خلال تسميتها قد يتبادر لأذهان المستمع البعيد عن هذا المجال، أنها تلك الرسائل المتبادلة بين أشخاص عاديين تربط بينهم صلة القرابة وأفاد النقاد بأن هذا النوع أكثر تشعبا في موضوعاته مقارنة بالرسائل الديوانية.

يتحدث شوقي ضيف في معناها قائلا: "هي رسائل تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة و من مديح و هجاء و من عتاب و اعتذار و استعطاف وتهنئة و رثاء أو تعزية"(2).

فمثل هذه الرسائل ترتبط بالمشاعر الإنسانية المتضاربة خلجاتها في النفس فهي بعيدة عن الجانب السياسي و هي عكس الديوانية تماما و هذا يحيلنا لفهم أنها قد تصدر من مؤلفين بسطاء شريطة أن يحوزوا على قدرة الكتابة و حسن التأليف و الصياغة حتى يتمكنوا من تكوين رسالة ذات خصائص أدبية، و في هذا المضمون إشارة إلى بعض مواضيع الرسالة الإخوانية نحو التهنئة والاستعطاف...

(1) منير السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس والمغرب، دار العلوم، الخليج، ط2، 1937، ص 117.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، ص 491.

و يضيف منير السباعي مبرزاً مجال هذه الرسائل فيقول: "هي تلك الرسائل التي يكتبها الأصدقاء بعضهم إلى بعض في مناسبات مختلفة، و هي أوسع ميداناً و أكثر افتتاناً وأعذب بياناً و أعلى منزلة و أسمى قدراً و أقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب و أخلاق الناس"⁽¹⁾.

فهي تلك الرسائل التي يكون مجالها متشعباً بحيث يمكن لصاحبها إظهار قدراته وإيضاحها في أجمل صورها و هي أكثر دقة ووضوحاً و مناسبة للتعبير عن الأفكار والكشف عن المواضيع أكثر من سابقتها و بالتالي هي النوع الأنسب لنقل الحياة الأدبية. و لم تتوقف الرسائل الإخوانية عند هذا المفهوم فقط بل تجاوزته لتتوسع أكثر وتشمل ذلك الأدب الرفيع الذي يرسم الكيان الثقافي و الاجتماعي للفرد، فبحسب مصطفى بشير القط: "تلك الرسائل التي يدبجها المبدعون إلى أهلهم أو من يماثلهم في المنزلة من الإخوان والنظر في غرض من الأغراض الاجتماعية أو الثقافية في قالب في متميز"⁽²⁾. أي أنها رسائل خاصة بعلاقات الشخص مع من يماثلوه سواء في الجانب الاجتماعي أو المستوى الثقافي، و لهذا اللون حضوراً أيضاً في العصرين العباسي و الأموي. و مما سبق يمكن استنتاج موضوعات الرسائل الإخوانية نحو: المدح، الهجاء، التهنية، الشكر، العتاب، التعزية والاعتذار، ومواضيع استثنائية: كالشوق والحنين للأوطان و غيرها مما ترق له القلوب.

ومن أمثلة هذا اللون ما كتبه أبو القاسم عبد العزيز يوسف صاحب ديوان الرسائل عن نفسه إلى مؤيد الدولة شاكر إياه و مهنئاً له قائلاً:

(1) منير السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس و المغرب، ص 150.

(2) مصطفى بشير القط: مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم، ص 203.

"وصل كتاب مولانا جوابا، عما خدمت به حضرتة المحروسة مهنئا فحسبتي و قد تأملت عنوانه مغاوطا في أو ما عني به غيري إعظاما لتلك الأيادي الغر و النعم الزهر التي أعدتها في الشرف مناسبا و إلى الأيام و الليالي ذرائع"⁽¹⁾.

وخلافا للونين السابقين اعترف النقاد بوجود نوع آخر أقرب للحياة الفكرية وتصويرها، و إلى الميدان الثقافي و مواضيعه إذ اقتصر على نقل العلوم و المعارف ودمجها مع علوم أخرى عرف بالرسائل الأدبية:

3. الرسائل الأدبية:

اعتبر هذا النوع من الرسائل التي لا توجه لشخص بعينه، و إنما قد يهدف الكاتب به إلى الناس جميعا لقراءته و لهذا يقول أنيس مقدسي: "هي رسائل طوال يكتبها البلغاء يسجلون فيها خواطرهم و يدونون آراءهم فيما يعنى لهم من شؤون الاجتماع والفكر والأدب لإعلانهم تأييد مذهب معين"⁽²⁾.

نخلص إلى أن هذه الرسائل تتميز بالطول ولا يمكن للشخص العادي الكتابة فيها بل لابد له أن يكون على قدر من الفصاحة و البلاغة حتى يقدم ما جاد به عقله في أمور العلوم و الأدب و الفكر و حتى يعبر عن وجهته و مذهبه المتبع، و يظهر أن كتاب هذا اللون لابد لهم من أن يكونوا من فحول البيان و أعلام البلاغة و حذاق الأدب و تتحدد موضوعات هذا اللون من خلال نوعية أسلوب الرسالة نحو (الطول، الإيجاز، الإطناب، القصر) نحو:

- الحديث عن علوم الفكر و الأدب.
- تحمل توجه كاتب الرسالة و بيان مذهبه.
- طرح آراء الكاتب في قضية ما.

(1) منير السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس و المغرب، ص 50.

(2) أنيس مقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1982، ص 151.

ويتقاطع هذا النوع مع نوع آخر للرسائل مع اختلاف في التسمية إلا أنه يتشابه معه في الخصائص و المضامين التي تُدبج في الرسالة و هو الرسائل الموضوعية، فهي تحمل نفس القضية الأدبية كونها تتعلق بإيصال العلوم و التعريف بها و إيضاها و كما يقول عبد الحكيم العبد: "هي التي تؤلف في مختلف العلوم النظرية و العلمية سواء في الأدب و معارفه أو العلوم و اختلافاتها"⁽¹⁾.

و من هنا يصح لنا القول بأن هذه الرسائل خلاف للرسائل الديوانية والاخوانية، ومن أمثلة هذا الصنف رسالة الحاج بن الدين الأغواطي التي وصف فيها طريقة صنع البارود قائلا:

"بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و أصحابه أما بعد: جميع سكان الصحاري يعرفون فن صناعة البارود، و طريقتهم فيه هي هذه: يجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدامة و هو في أصله كان مادة مالحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء، ثم يغلى الماء لأن يصبح خائرا، و يؤخذ منه رطل و يخلط مع أربعة أرطال كبريت و أخرى فحم مستخرج من شجرة الدفلى، و في أربع ساعات تصبح هذه المواد بارودا"⁽²⁾.

و الملاحظ في هذه الرسالة أنها تقدم طريقة لتحضير وصنع البارود و هو نقل لما رآه المرسل.

مما ذكرناه سابقا يتبين لنا أن تصنيف الرسائل يقوم أساسا على معرفة أغراضها وموضوعاتها و أنها سميت من خلال الدواوين الصادرة عنها أو كتابها و مكانتها، لذلك

(1) عبد الحكيم العبد: تاريخ الأدب العربي، صدر الإسلام و عهد بني أمية أكثر من منظور ونماذج من النثر والشعر، دار الفنون، مصر، (د-ط)، 2006، ص 95.

(2) أبو القاسم سعد الله: مجموع رحلات، رحلة الأغواطي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، (د-ط)، 2011، ص 91.

نجد لوناً جديداً حديث الظهور أطلق عليه المحدثون اسم رسائل المزاجية، فما مضمون هذا اللون يا ترى؟

4. رسائل المزاجية:

هناك من النقاد من دلّ على قسم آخر تقتضيه القسمة العقلية بالنظر إلى صور الخطاب بين المرسل و المرسل إليه، الذي يتجلى بين الرؤساء إلى المرؤوسين أو العكس، و هذا ما ألمح إليه أبو هلال العسكري، دون تسميته قائلًا: "فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء، و من فوقهم، فإن سبيل ما كان واقعا منها في إنهاء الأخبار و تقرير صور ما يلونه من الأعمال"⁽¹⁾.

و الملاحظ في قوله أنه أشار إلى ما يكتبه شخص في مرتبة أدنى و هو العامل إلى شخص في مرتبة أعلى و هو الحاكم، و هو ما ذكره أيضا علي بن خلف من خلال ملاحظاته لعلاقة المرسل بالمرسل إليه قائلًا: "المكاتبة العامة على ثلاثة أضرب، من رئيس إلى مرؤوس، و من نظير إلى نظير، و من مرؤوس إلى رئيس"⁽²⁾، يمكننا أن نستنتج أن للرسائل تسمية أخرى و هي المكاتبة العامة كما أنها تقوم على ثلاثة أنواع، فقد قصد بقوله:

من نظير إلى نظير: الرسائل الديوانية، و أما النوعين المتبقين فهو المقصود بمصطلح رسائل المزاجية و بالتالي فالمقصود منها هو: "الرسائل الفنية الأدبية المستقلة بطبائعها عن الديوانية و الوجدانية بالنظر لأحوال الباث و المتلقي"⁽³⁾.

فهي كل الرسائل التي تخالف الرسائل الديوانية و الرسائل الوجدانية من حيث الأسلوب و الطريقة مع مراعاة الشخص المرسل و المرسل إليه، من أهم مضامينها: مناجاة الرسول، التهاني، الإغاثة.

(1) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص157.

(2) محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص228.

(3) المرجع نفسه: ص 232.

و من أمثلة هذا اللون الرسالة التي بعث بها لسان الدين بن الخطيب إلى سلطان المغرب أبي زيان قصد الشفاعة قائلا: "و استكثرنا من الآلات و الأسباب، و استبحرنا من معارج الثورات، و خزائن الشباب، و لم ندع حيلة تبقر سورا، ولا تهويلا يذعر محصورا، و لا آلة تحط وقاية منصوبة، و لا نكاية تكظم بلدة مخروبة إلا استزدنا من أنواعها و أجناسها، (...)، وإلا فما يغني العدد إذا لم يكن منه الإعانة و المدد"⁽¹⁾.

في الأخير لا يمكن القول أن هذه الأنواع التي تم ذكرها تعبر عن الأنواع العديدة للرسائل إلا أنها أشهر ما عرض فيها و إن اختلفت أغراضها، فتنوع الرسائل مرهون أو مرتبط بحسب الموضوع الذي تتناوله أو تطرحه لذلك صح لنا القول أن كاتب الرسائل لابد له أن يكون ذا خلفية معرفية و على مقدرة كبيرة من الإطلاع على مختلف العلوم حتى يترقى لمنصب كاتب ممتاز، و هذا ما يجعل من الرسالة أدبا له خصائصه المستقلة عن غيره من الفنون.

فما هي أبرز خصائصه المتفق عليها من قبل الدارسين؟

رابعا: الخصائص الفنية لأدب الرسائل

تكتسب الرسالة خصائصها من فنها الأدبي الممثل بالنثر، غير أنها تتفرد بخصائص أخرى تفرضها طبيعتها باعتبارها جنسا أدبيا يستند إلى مكونات وسمات تميزه عن غيره من الأجناس النثرية الأخرى، أبرزها متعلق بالبنية الفنية و الشكلية للرسالة، فقد أشار النقاد إلى أن الرسائل تنقسم في بنيتها الداخلية إلى ثلاثة أقسام تشكل أهم خصائصها هي:

1. بنية المقدمات:

و تعرف أيضا بالابتداء اعتبرت مفتاح الرسالة و عرف عن البناء الهيكلي للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي منذ ظهورها الأول و عن هذا الاختلاف يقول الكلاعي: "و نظرت في صور الرسائل و استفتاحاتها فوجدتها تختلف"⁽²⁾.

(1) محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص 239.

(2) أمانة الدهري: الترسل الأدبي في المغرب، النص و الخطاب، الدار العلمية، المغرب، ط1، 2003، ص 31.

فالرسائل بأنواعها تشتمل عادة على "البسملة و الصلاة على النبي و المرسل والمرسل إليه و الموضوع"⁽¹⁾.

2. بنية المضمون أو العرض:

ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم و بحسن التخلص لطرق الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم و غالبا ما يقع حسن التخلص بصيغة "أما بعد" و هي وقفة بين الابتداء في الشروع حول الموضوع المراد ذكره"⁽²⁾، و تتنوع مضامينها بحسب مقام كتابتها.

3. بنية الخاتمة:

هي آخر ما يكتب في الرسالة و تكون في الغالب بلفظ "السلام، أو السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته و تشتمل العديد من الرسائل على التأريخ باليوم و الشهر والسنة كعلامة على انتهائها و يشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة و حسن لأنه آخر ما يبقى في الأسماع"⁽³⁾.

من هذه الأقوال يمكنني أن استشف مجموعة من الخصائص الظاهرة في الرسائل نحو:

- اشتمالها على البسملة -بسم الله الرحمن الرحيم- و الاستفتاح بها و الصلاة على النبي المصطفى صلى الله عليه و سلم.
- الاختلاف في مطالع الرسائل.
- استعمال كلمة أما بعد كمفتاح للانتقال لصلب الموضوع.
- ختام الرسالة بالسلام أو الدعاء أو وضع التواريخ و تحديدها.
- تضم الرسائل، مقدمة و عرض و خاتمة، و فيها عنصرين مهمين للتحقق هما: المرسل و المرسل إليه.

(1) المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(2) أحمد الشويخات: قرص الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الأول، الموقع الإلكتروني: www.intaaj.net

(3) آمنة الدهري: الترسل الأدبي في المغرب، النص والخطاب، ص 32.

و يقر عمر عروة بمجموعة من خصائص هذا الأدب لخصها في⁽¹⁾:

- تضمين الرسائل للأمثال والأشعار.
 - الاقتباس من القرآن الكريم و الأحاديث النبوية.
 - سهولة الألفاظ و وضوحها من ناحية و غرابتها أحيانا أخرى.
 - جمال الآراء و إتشاح الرسائل بالمحسنات البديعية و البراعة في عرض الأفكار والدقة في تنظيمها.
 - الإيجاز و الإسهاب وفق ما يقتضيه المقام.
- بالتالي فإن خصائص هذا الفن تتغير بتغير أنواعه و القضية التي تتناول فيه وبحسب الوجهة المرسل إليها، إلا أنه أثبت حضوره في مجال الدراسات و البحث التي جعلت من النقد يحددون له أهم الخصائص و السمات المنفردة به.
- و على هذا الأساس كيف يمكن أن تكون شخصية كاتب هذا الفن و ما هي مميزاته التي تؤهله لأن يصبح أحد رواد هذا اللون؟

خامسا: شخصية كاتب الرسالة

تعتبر الوظيفة الكتابية من أهم الوظائف التي تحقق توسع التصورات للمعاني، لذلك كان على كاتب فن الرسائل أن يظهر في صورة تحدد صميم دوره في الرقي بهذا الفن، والمعلوم أن كتاب الرسائل هم أهل العلم و الأدب يغمرهم العطاء للتصنيف والتأليف، فتميزوا بشغف للمعرفة و حب للكتابة و تفننوا في إنشائها، فنشط العديد من رواد هذا اللون حفلوا بمميزات أبرزها⁽²⁾:

- إحسان الصناعة الكتابية و إتقانها.
- أن يكون الكتاب من أهل الذكاء و التعقل بحسب المقام الذي أرسلت إليه الرسالة.

(1) عمر عروة: النثر الفني وأبرز فنونه و أعلامه، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، القصبة، (دط)، (دت)، ص33.

(2) منير السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس و المغرب، ص ص46-48.

- أن يكونوا من أصحاب الفكر الغواص (العميق) و الخيال المخصب البديع، كما يجب أن تتوفر فيه القدرة على تصوير الأمور و الارتقاء بها للتفصيل الدقيق.
- أن يحمل القدرة على المباحثة و خلق الحجج و تقديم البراهين وان تتوفر كتاباتهم على قدرة الإبداع المناعي .
- الإكثار في كتابته من المعاني الدقيقة التي تدلل على حصافة العقل و غوص الفكر وطول الدراسة و قوة المنطق.
- أن يكون له حضور قوي و هوية رمزية بين أقرانه و نظرائه في هذا اللون.

المبحث الثالث: فن الرسالة في الأدب الجزائري القديم

بدايات الأدب الجزائري القديم:

تعد الجزائر موطنًا لموجات الاستعمار و رمزا للتاريخ الحافل بالثقافات التي انتجتها اختلافات الشعوب و تمازجها، لذلك زينت الجزائر بحلة أدبية و عرف فيها أدب نقي رفيع مختلف باختلاف الولايات الحاكمة لها، فكان إضافة حقيقية و مميزة في مسيرة الأدب الإنساني، فلقد اشتهر الأدب الجزائري في القديم لدى كل باحث في الأدب المغربي بصفة عامة و هذا ما يشهد به التاريخ الحضاري و الفكري الذي كان ينبض منذ فجر الفتح الإسلامي لذلك يمكن القول أن تسمية الأدب الجزائري القديم أثارت جدلا حادا في الوسط النقدي و أثارت إشكاليات تصب في هذا الموضوع نحو:

ما هي بداية الأدب الجزائري القديم و ما مفهومه؟ و هل كان هناك أدب جزائري قديم مستقل بذاته؟ و ما هي حدود بدايته و نهايته المتفق عليها؟

1. الفترة التاريخية و الزمنية لنهضة الأدب الجزائري القديم:

لقد أسفرت حركة الفتح الإسلامي في بلاد المغرب العربي على تنوع ثقافي كبير في أوساط المناطق التي دخل إليها، فكان للجزائر حطا وافرا في تلقي هذا المد الثقافي بمختلف أنواعه، إذ تعاقبت عليها دول عديدة أرست كل دولة معالم حضارتها و روافد آدابها و فنونها و هذا ما جعل منها بيتا كثير الفنون والآداب، و هو ما تدلل عليه الآثار والمخلفات الفكرية المتنوعة في آدابها و في إشارة من الدارسين أجمعوا على أن إرهاصات الأدب الجزائري القديم "تمتد من الدخول الإسلامي للجزائر و تعاقب الدول الفاتحة على بلاد الجزائر"⁽¹⁾، لذلك أمكننا القول أن هذه الحضارات الجديدة قد رسمت لنفسها حياة أدبية و فكرية مستقلة استفادت منها مناطق الجزائر باعتبارها عواصم لبعض هذه الدول، و أشارت آراء النقاد إلى أن بدايات الأدب الجزائري القديم كأدب مستقل بذاته

(1) محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي و حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم، الكويت، ط3، 1987، ص 82.

كانت منذ دخول الرستميين إلى بلاد الجزائر و هذا ما اعترف به مبارك الميلي إلى سقوط الدولة العثمانية قائلا: "ينطلق منذ تأسيس الدولة الرستمية التي يرتبط بعض الشعر والنثر بحكامها أنفسهم"⁽¹⁾.

إذن فدخول الدولة الرستمية هي بؤرة تأسيس الأدب الجزائري ذلك أنها حفلت بفكر متنوع و بالتالي فتاريخ [754 - 909م] ، هو نهضة الحركة الأدبية الجزائرية القديمة وسقوط الدولة العثمانية جسد ظهور حقبة زمنية مثل لها الاستعمار الفرنسي عام [1830م] ليعد كل أدب نشأ في مرحلة الاستعمار الفرنسي و ما بعده "مرحلة حداثة الأدب الجزائري"⁽²⁾.

أما حقيقة وجود هذا الأدب المستقل بذاته فإننا نجد عادل نويهض يؤكد عن كيان أدب جزائري قديم مستقل متميز فيقول: "كان للجزائر عبر العصور منذ كرمها الله بنعمة الإسلام و تلونت بالصبغة العربية، تاريخ مجيد حافل و لأعلامها وأئمتها و سلاطينها وملوكها في الحضارتين الإسلامية والعربية"⁽³⁾.

وفي هذا المفهوم إقرار واضح بأن الجزائر كانت لها حياة فكرية أدبية منذ الفتوحات الإسلامية، كما كانت لها إسهامات في إثراء الحضارات و إضافة الاختلافات المتنوعة لها في شتى المجالات.

(1) مبارك بن محمد الميلي الجزائري: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، تقديم و تصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د-ط)، 1986، ص 45.

(2) شوقي ضيف: عصر الدول و الإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا و السودان، دار المعارف، مصر، ط1، (د-ت)، ص 38.

(3) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، دار نويهض للثقافة و التأليف، لبنان، ط2، 1980، ص 12.

غير أن رمضان شاوش يظهر حدة كبيرة في التأكيد على وجود هذا اللون بقوله: "خامرتنا فكرة و نحن لازلنا في عنفوان الشباب أن نجمع في كتاب آثار أدباء بلادنا الجزائر لنبين مساهمتنا كذلك في بناء صرح المغرب الكبير"⁽¹⁾.

فحديثه بالجمع يدل على مدى غزارة الأدب الجزائري و حيازته على ألوان عديدة وأجناس مختلفة قدمت إضافات لتوضيح معالم أدب مغربي ككل، و من هنا نستشف وجود أدب جزائري مستقل أبدع فيه الأدباء و الأمراء و ساهموا في بناء صرح أدب مغربي فللجزائر لمستها الخاصة في فنون الأدب، فهذه الأقوال و الكتب الخاصة تؤرخ لهذا الأدب العتيق الذي حاز على مناصب لتدريسه و اكتسب خصائصه و مقوماته بعد التأكد من أن للجزائر أدبها الخاص بها الواضح المعالم، فما مفهوم الأدب الجزائري القديم؟

2. مفهوم الأدب الجزائري القديم:

إن الآثار الأدبية الموجودة و المتنوعة في أدب الجزائر تشهد على قيام هذا الأدب وإن كان فرعاً من أصل الأدب العربي الوافد مع العرب الفاتحين فعرف على أنه: "التراث اللغوي و الأدبي من المنظوم و المنثور الذي أنتجه الأبناء الأصليون المنتسبون لإقليم الجزائر المعروف بحدوده السياسية منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني"⁽²⁾.

بالتالي هو ذلك الأدب الذي يضم الجنسين الشعري و النثري الذي ألفه أبناء الوطن الواحد داخل إقليم بلدهم من عهد الفتوحات إلى عهد سقوط الدولة العثمانية.

في هذه الفترات ظهرت ألوان عديدة و حفلت كل دولة بكم ثقافي أرّخ لهذا الأدب، فما هي روافد كل دولة وما هي إسهاماتها في تكوين فنون الأدب الجزائري القديم؟ و ما هي أهم بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي؟

(1) محمد رمضان شاوش: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع و إشتهار داود بريكسي، الجزائر، ط2، 2005، ص 41.

(2) مبارك بن محمد الميلي الجزائري: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص45.

3. بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي:

ما هو متعارف عليه عند النقاد والدارسين أن الجزائر كدولة سياسية تعاقب على حكمها عدة إمارات جعلتها تمر بعدة تغيرات في نظام حكمها و طريقة عيش شعوبها، وكان هذا منذ الفتح الإسلامي حيث برزت دويلات حملت قوالب فكرية و ثقافية متنوعة وهذا ما يحيلنا إلى المدى الثقافي الذي عرفه المجتمع الجزائري في تلك الحقبة ومدى الثراء الفكري الذي حصله سكان تلك الأيام، مما يؤكد على تنوع الأجناس الأدبية واختلافها، لذلك سنحاول معرفة حالة الأدب الجزائري في أقوى هذه الإمارات، ذلك أن كثرة هذه الدول و تشعبها يفرض علينا أخذ الحقب التي ظهر فيها فن الرسائل بصورة واضحة، والتي تمثلها: الدولة الرستمية، الدولة الموحدية، و الدولة الزيانية و سنهتم بصفة دقيقة وخاصة بالدولة الموحدية و أدب الرسائل في ظلها.

أ) الدولة الرستمية

1- نشأتها:

تعد الدولة الرستمية إحدى أهم الدول في تاريخ الأدب الجزائري، فقد تأسست نتيجة معارضتها للخلافة العباسية إذ أنها "دولة أقامها الخوارج في المغرب العربي في الفترة الممتدة من [754 – 909] م على يد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي صاحب المذهب الإباضي إذ جعل من مدينة تيهرت(*) عاصمة لدولته، انهارت على يد الفاطمية عام [909] م، و كان آخر حكامها يقظان بن أبي اليقظان⁽²⁾.

دخل إلى الجزائر من منطقة واد سوف و حط الرحال بمدينة تيهرت التي اعتبرها عاصمة دولته الثقافية.

(*) تيهرت: هي اسم مدينة تيارت قديما و هي عاصمة الرستميين التي اتخذوها موطن حضارتهم.

(2) محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966، ص28.

2- الحياة الأدبية و الفكرية في الدولة الرستمية:

بلغت مدينة الرستميين درجة من الفكر والثقافة فحملت مشعل الحضارة والعلم في عصرها فكانت لها عوامل ساهمت في إحياء هذه الثقافة أبرزها: انتشار المؤسسات التعليمية من مساجد و مكتبات فنبغوا في الفقه و العلوم و التفسير و الشريعة و الاقتصاد و كل أمور التجارة⁽¹⁾، كما دخلوا مجال الأدب من أوسع أبوابه فتناولوه بشقيه الشعر والنثر، إلا أن الغلبة كانت للنثر "كان النثر عندهم مجموعة من الخطب و الرسائل الديوانية التي صدرت كلها من الأئمة الرستميين"⁽²⁾، فهذا دليل على وجود فن الترسل حيث جسده نوع الرسائل الديوانية الصادر عن الأئمة الرستميين، خاصة و أن ظروف دولتهم "تحتّم عليه الاستعانة بفني الخطابة و الترسل"⁽³⁾.

إذن فوجود الرسائل في عهد الرستميين كان أمرا ضروريا لأنهم كانوا يتواصلون فيما بينهم بصفة خاصة و مع الشعب بصفة عامة أضف إلى أنها كانت تصدر عن الخليفة الرستمي بذاته.

3- أشهر كتاب أدب الرسائل في الدولة الرستمية⁽⁴⁾:

برزت مجموعة من كتاب هذا الفن انحصر أغلبيتهم في قادة هذه الدولة لعل أشهرهم هو: "الإمام أفلح بن عبد الوهاب حيث كان يكتب ليقدم النصائح لمن كان تحت لوائه من المسلمين و الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح و عبد الله التواتي. و مما سبق نستنتج أن الدولة الرستمية هي دولة أدبية زخرت بجل الفنون و أجناسها وكان لأدب الرسائل نصيب جيد في انتشاره و تلقيه على يد أمرائها أنفسهم.

(1) ينظر: إبراهيم بكير: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، الجزائر، ط1، 1985، ص 264.

(2) المرجع السابق: ص 268.

(3) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول و الإمارات، ص 222.

(4) سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، تحقيق: أحمد كروم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط3، 2000، ص ص 280 - 286.

ب) الدولة الموحدية

1- نشأتها:

لقد مثل العهد الموحي فترة لامعة في التاريخ المغربي الجزائري، ذلك أن الحكم في هذه الدولة قد تعاقب عليه مجموعة من الخلفاء، أنشأوا علاقات و أوامر مختلفة تواصلوا من خلالها مع دول عديدة و نظراء لهم و عمال وطلبة و حتى مع شعب أمتهم وتتحدث كتب التاريخ أن نشأة و قيام هذه الدولة "كان على يد المهدي ابن تومرت، لكنه توفي بعد مدة قصيرة من توليه الحكم لتنتقل الأوامر إلى عبد المؤمن بن علي"⁽¹⁾.

و قد اتخذ الموحدون من مدينة بجاية عاصمة لدولتهم و مركزا لها، و تميز حكام هذا العهد ببصيرة فذة في تسيير شؤون الحكم و حسن المعاملة و دعم الشعب، و في ظل هذه الدولة كانت آخر معارك بني هلال في الجزائر، انتهت خلافتها على يد الدولة الحفصية، ببرز قائدها أبو زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص⁽²⁾.

2- الحياة الأدبية و الفكرية في الدولة الموحدية:

اشتهر الموحدون بصفة عامة و السلاطين بصفة خاصة بتلقي الآداب و تلقينها فنشروا العلوم الإسلامية و الفلسفية و التفسير في الحديث و القرآن و تطرقوا لعلم الكلام و الفقه، و امتازوا بالدقة و البحث و عدم الاكتفاء بالموجود فكانت علومهم قائمة على جوهر الدين فأنشأوا كل ما تتطلبه الحياة العلمية و الأدبية، حتى ييسروا أخذ العلوم والآداب، كالمدارس و المساجد و المكتبات و المعاهد و أصبحت بجاية منارة العلم والآداب و عرفوا فنون النثر و الشعر بألوانها وأغراضها فاشتهرت عندهم الرسائل الديوانية و الإخوانية⁽³⁾، فهذه الدولة من "الدول التي بلغت فيها الكتابة الديوانية مبلغا

(1) ينظر: شوقي ضيف: عصر الدول و الإمارات، ص 48.

(2) المرجع نفسه: ص 49.

(3) مبارك بن محمد الميلي الجزائري: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ص 305.

عظيما تلك كانت الدولة الموحدية، و السبب اهتمام الدولة بالإبلاغ و الإعلام لاتساع رقعتها و التنقلات التي كان يقوم بها الحكام⁽¹⁾.

بالتالي فهي دولة عرفت فن الرسائل بسبب اهتمام سلاطينها بالتواصل فيما بينهم وهو دليل ملموس جسده كثرة الرسائل في هذا العهد و أكدّه بروز الكثير من الكُتّاب وهو أمر أقرّته العديد من الكتب مثل: كتاب مجموع رسائل موحدية، كتاب العطاء الجزيل وغيرها من المؤلفات التي تدل على معرفة الموحدين لهذا الأدب، وسنتطرق لرسائلهم المهمة في الفصل الثاني حيث سنقوم بدراسة إحدى أهم تسع رسائل في تلك الفترة.

3- أشهر كتاب الرسائل في الدولة الموحدية⁽²⁾:

برزت كوكبة لامعة في هذا المجال من أرقى رجال البلاط إلى أبسط طالبي العلم ولم تقتصر كتابة الرسائل على الخليفة فقط، بل كان له الفضل في تشجيع طلبة العلم أبرزهم: أبي جعفر بن عطية، أبي الحسن بن عياش، أبي القاسم القالمي، أبي عقيل عطية بن عطية، أبي الحكم بن عبد العزيز بن المرخي، أبي الفضل بن محشرة البجائي.

بالتالي فالعهد الموحي هو عصر ثقافة و نهضة أدبية بارزة شكلت نقطة تحول في الأدب الجزائري و رسمت صورة واضحة لأبرز الآداب و الفنون، و لم يقتصر أدب الرسائل على هذه الفترة فقط، فقد عرف العهد الزياني مجموعة من الرسائل على يد علماء و سلاطين مشهورين.

(1) أحمد عزاوي: رسائل موحدية جديدة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، المغرب، ط1، 1995، ص15.

(2) لافي بروفنصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، دار النجاش، الرباط، المغرب، ط1، 1941، ص ص 121-153.

ج) الدولة الزيانية

1- نشأتها⁽¹⁾:

الدولة الزيانية المعروفة بدولة بني عبد الواد تواجدت في الخارطة الجزائرية لمدة ثلاثة قرون كاملة فامتدت حياتها من سنة [663 هـ - 962 هـ]، مؤسسها الأول هو يغمراسن بن زيان، مرت بعدة اضطرابات أثناء حكمها لأنها ربطت مصيرها بنظام قبلي لا يقبل التجديد أو التغيير، كان عهدها الأول هو أقوى مراحل عمرها إذ ظهرت حدة شديدة للدفاع عن الإسلام و الصبر في الخطوب و فرض وجودها، لكن تعاقب السلاطين على إمارتها و اختلاف شخصياتهم جعلها تدخل غمار الضياع و خضعت لنوع من الضعف و التشتت خاصة بمقتل يغمراسن بن زيان إلى أن ظهر السلطان أبو حمو موسى الثاني و أعاد أمجاد أجداده و أنشأ الدولة الزيانية في عاصمتها و حاضرتها تلمسان فأصبحت دولة العلوم و القوة مشاركة في بناء صرح المغرب العربي عامة و الجزائري خاصة، سقطت على يد التركي باي لارباي صالح فأصبحت تابعة للدولة المرينية.

2- الحياة الأدبية و الفكرية في الدولة الزيانية:

عرف الزيانيون بحب الإطلاع و البحث فكانت بلادهم حاضرة متميزة مختلفة الآداب، عرفت المنجزات العمرانية و إنشاء المؤسسات الثقافية و رفع مراتب العلماء فأوجدت المدارس من أجل التعليم و المساجد من أجل تلقين القرآن والحديث، مثل مدرسة ولدي الإمام و المدرسة التاشفينية و غيرها، فكان الأدب عندهم في أسمى مراتبه رفعة واكتسب قيمة فنية سليمة، و عرفوا مختلف الفنون النثرية و الشعرية و العلمية والعقلية⁽²⁾. كان سلاطين هذه الدولة شديدي الحرص على تلقين العلوم و تدريسها و نشرها ورعاية العلماء و كانوا في أغلب الأحيان هم أساتذة و مشرفي آخذي الأدب، امتازوا بفن

⁽¹⁾ ينظر: بوزياني الدراجي: أدباء و شعراء من تلمسان، دار الأمل للدراسات، (د-ط)، الجزائر، 2011، ص 185.

⁽²⁾ ينظر: بوزياني الدراجي: زهر البستان في دولة بني زيان، مؤسسة بوزياني، الجزائر، (د-ط)، 2001، ص ص

الكتابة و شاع عندهم الترسل ذلك أن الرسائل كانت طريقتهم الأنسب لتبادل الأخبار وبعث الوصايا، و التواصل في أمور السياسة، كما عرفوا الخطابة و فن الوصايا، و من أشهر رسائلهم نجد رسالة أبي عنان و والده أبا يعقوب حاكمي-فاس-، إلى أبو حمو موسى الثاني مخبرين إياه بخطر غزو المرينيين و المكيدة التي يحاولون القيام بها ضده، ورسالة أبو حمو موسى للزعيم المريني من أجل عقد الهدنة⁽¹⁾.

إذن فالدولة الزيانية هي عاصمة ثقافية حضارية هامة في تاريخ الجزائر، كان لها التعرف على الألوان الأدبية المختلفة.

3- أشهر كتاب الدولة الزيانية:

لقد اكتسب فن الرسالة كُتَّاباً تميزوا بالدهاء السياسي و العطاء الثقافي الذي مكنهم من التأثير في متلقي رسائلهم أبرزهم⁽²⁾: الإدريسي أحمد بن موسى، الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني العلوي، و أشهر كاتب في الإنشاء القاضي المبارك أبو عبد الله محمد بن أحمد التميمي، و لم يقتصر الأمر عليهم فقط بل كان هنالك كوكبة من الكُتَّاب تغيرت أسماءهم مع تغير حكامهم.

(1) بوزياني الدراجي: أدباء و شعراء من تلمسان، ص 200.

(2) المرجع السابق: ص 315.

يتضح مما سبق أن أمة تريد الحفاظ على وجودها، و تطمح لامتلاك أدوات التطور من ميراثها الحضاري، لا غنى لها عن عنصر التراث الأدبي بكل ألوانه و وسائله التعبيرية، من أجل تغيير الحاضر من خلال ربط الماضي بالمستقبل، فكانت الرسائل إحدى أدوات التغيير عن طريق الإبداع الثقافي، فإننا نجد كُتّاب أدب الرسائل قد وجدوا في كتاباتها ما يلهم تجاربهم و يروي طموحاتهم الفنية، فالنثر قد عرف أدب الرسائل عبر عصوره المختلفة و ازدهر و تطور حسب ما تتطلبه طبيعة الحياة في أي فترة، ثم إن الأدب الجزائري قد حفل بهذا اللون و امتزج بتطلعات كُتّابه و رواده، إذ جعلوه مادة أدبية قابلة للدراسة و أفردوا له قواعده و خصائصه المستقلة بذاتها دونما الخلط بينه و بين أي فن نثري آخر.

الفصل الثاني

قراءة في

في

رسائل أبي الفضل بن
محمّد بن الحسين

المبحث الأول: السياق النصي في رسائل البجائي

1. الهدف من دراسة أدب الرسائل
2. أهمية أدب الرسائل البجائية وقيمتها في الأدب الجزائري
3. القصد من تحليل رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي
4. تقديم رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي

المبحث الثاني: البناء النصي لرسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي

1. الكشف عن البنى الداخلية للرسائل
2. أنواع الرسائل
3. خصائص ومميزات الرسائل البجائية الموحدية

المبحث الثالث: صورة الآخر في رسائل البجائي

تمهيد

1. صورة الآخر الإيجابية
2. صور الآخر السلبية
3. جدول يبين صور الآخر

المبحث الأول: السياق النصي في رسائل البجائي

1. الهدف من دراسة أدب الرسائل:

تعتبر الرسائل من أهم الفنون النثرية و الأجناس الأدبية المعبرة عن أحوال الناس وانشغالاتهم الاجتماعية و السياسية، لذلك سنعالج في هذا الجانب مستوى صورة الآخر من خلال أدب الرسائل بصفة عامة و الرسائل البجائية بصفة خاصة، و ما كان اختيار أدب الرسائل لدراسته إلا محاولة لاستجلاء جانب كثيرا ما خفي في الأدب أنه يمكننا من معرفة حياة الأدب و ما تتفرد به الرسائل من مميزات، بالإضافة إلى محاولة استنباط العوامل التي أدت إلى بروز هذا الفن، زيادة على هذا فإن هذا اللون يعالج قضايا تطرح من خلالها نظرات متعددة تساهم في خلق آراء و نظريات ومذاهب مختلفة المشارب وبالتالي المساهمة في إثراء الأدب وفنونه.

فأدب الرسائل يقدم جانبا واضحا من شخصية رواد هذا الفن لتصبح دراسته وتحليله صورة متنوعة لأدباء و عظماء صح فيهم الاعتماد على نظرياتهم و مع كل هذا لا يخفى أن الرسالة هي لوحة فنية كتابية مشرقة زاخرة بالحياة تجسد لمحة عن الحياة الثقافية والفكرية في كل عصر، فدراسة الرسائل على أنها لون نثري تمكننا من الكشف عن خصائص أدب الرسائل وطبيعة اختلافها عن مجال الشعر و المجالات التي تتقاطع معها.

2. أهمية أدب الرسائل البجائية و قيمتها في الأدب الجزائري:

تعد رسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي التسعة من خزانة البجائي ذات أهمية كبيرة و قيمة تاريخية في الأدب الجزائري ذلك أنها ساهمت في:

- التدليل على وجود أدب جزائري مستقل بذاته.
- مساهمة مثل هذه الفنون في بناء أدب مغربي و عربي جزائري، كما أنها مكنت الفرد الجزائري من الإحساس بالمجد القديم لوطنه، و أن الجزائر هي مهد الحضارات و ملهمة الفنون.

- في هذه الرسائل إشارة إلى أهم أدباء تلك الفترة و أهم منتوجاتهم الفكرية.
- معرفة طريقة الحياة التي حظي بها سكان تلك الحقبة و الإطلاع على أهم الأحداث التي دارت في تلك الفترة.
- مثل هذه الرسائل جعلت من الأدب الجزائري يرتقي إلى مقاعد الدراسة و البحث العلمي.

لذلك فإن هذه الرسائل البجائية بالنسبة لي يمكن اعتبارها وثيقة تاريخية و دليل ملموس على وجود الأدب الجزائري المستقل بذاته.

3. القصد من تحليل رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي:

لم يكن اختيار هذه الرسائل عبثا و لم يأت اتخاذها كموضوع للدراسة صدفة إذ أن الغرض وراء تتبع منشأها هو تعريف الطلبة بعهد حاز على أكبر قدر من الرسائل إذ فاقت المائة (100) رسالة رسمية اختلفت باختلاف مراحل حكمها، و تتدرج رسائل البجائي التسعة (09) ضمن الرسائل التي بلغ عددها سبعة و ثلاثون رسالة (37)، في عهد المؤمن وولديه و سنتوسع فيها في مراحل لاحقة من البحث، بالإضافة للتعريف بأبرز الحوادث التي وقعت أيام الموحدين و طريقة تصديهم للمصاعب و أخذ التدابير السياسية و الإصلاحات الاجتماعية و الكشف عن الوضع الداخلي في الجزائر و ما يتعلق بمواقف السلطة الموحدية.

كما أن هذه الرسائل تبرز امتداد النفوذ الموحي و علاقاتهم مع نظرائهم من الدول المجاورة، و معرفة طبيعة الفرد و شخصيته و موروثة الثقافي و الفكري و مدى حضوره في قيام أدب مستقل، فالعقلية الثقافية للإنسان الموحي أفضت به إلى إسهامات أرّخ لها التاريخ و سجل حضورها بين مختلف الآداب والدليل هذه الرسائل التي نعالجها، إن المتتبع لمضامين هذه الرسائل كل على حدا يلحظ تطور فن الكتابة و يتعرف عليه في عهد الموحدين و بالتالي تكون له القدرة على إجراء مقارنات تحليلية بين المنتجات النثرية و تجعل من الباحث يأخذ مستفادات حضارية في جوانب تخدم حياته سواء الإدارية أو

الدينية، لذلك فتحليل هذه الرسائل يمهد الطريق للباحث في الأدب الجزائري و يشجعه على إكمال مهامه من خلال تأكده من موجود أدب جزائري قديم.

4. تقديم رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي:

تعتبر رسائل البجائي التسعة ثمرة فن الرسائل في ظل الدولة الموحدية حيث كانت أطول الرسائل التي كتبت على يد أبرع رواد هذا الأدب في عهد الخليفة المؤمن و ابنه من بعده، لذلك فقد كانت لها سماتها الخاصة و مميزاتها المنفردة بها من حيث اللغة التي كتبت بها أو المواضيع التي تناولتها و حتى الوجهات التي أرسلت إليها، لذلك فإن شخصية مؤلفها لابد أن تكون دون الشخصيات الموجودة في عصره، و حتى ثقافته وخلفيته لابد و أنها قد اغترفت من أرقى العلوم و الآداب.

فالكثابة الديوانية بلغت مبلغا عظيما في هذا العهد، ذلك أن هذه الدولة كان لها اهتمام كبير بالإعلام و عناية بالغة بوسائله و هذا بسبب اتساع رقعتها و تعدد ولاياتها و تنقلات خلافتها، و ما من ريب في أن رسائل البجائي هي نتاج غزير لتفكير أدبي رفيع في تصوراتها، و ألفاظه و تراكيبه و على الرغم من أنها تسعة رسائل إلا أنها تتم عن لغة كثيفة و معاني واسعة متنوعة، فالإقتصار عليها دون غيرها راجع إلى أنها مدونة لغوية وأسلوبية عظيمة إذ أن الصعوبة في تتبع مشاربها الثقافية تفرض علينا التوقف عندها والنظر في بنائها دون غيرها، أضف إلى أن الكتاب الذي جمعت فيه هذه الرسائل لم يكن مقتصرا على ذكرها و ذكر مؤلفها فقط، بل اختص بذكر درر الرسائل الموحدية ليتم إصدار جزء ثان يكمل ما انقصه هذا الكتاب، إضافة إلى وجود بعض الرسائل التي ظل مؤلفوها و سنة تأليفها محذوفة، فأوضحت بصيغة فلان و كثير منها مبتورة البداية والنهاية فلا تعرف الجهة التي صدرت منها و لا الوجهة التي أرسلت إليها، بالإضافة إلى عدم الاتفاق على مؤلف واحد لهذه الرسائل، لذلك فقد كانت رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي موضوعا خيرا يسهل منها أن تكون موضوعا للبحث و الدراسات، فكون الرسالة

معروفة و صاحبها مذكور لا يستتفز وقتا و لا يأخذ جهدا وقد يجعل من الطالب يتراجع عن تناوله، كما أن الوجهة المرسله إليها واضحة.

فهذه الرسائل تبرز نوعا من الجانب الجمالي في الدراسات التي تهتم بصورة الآخر في الأدب لتشمل الصور الاجتماعية و الفكرية و النفسية، كما تبرز الصور التي تكونت في الماضي لتسهل لنا فهم الحاضر والتأسيس للمستقبل، خاصة أن مواضيعها تهدف للتوعية، النصح، الإرشاد، التهئة، فهي رمز للآداب و الأخلاق و هي رمز ثقافي استند إلى جانب ديني لذلك نستعرض لهذه الرسائل من حيث: اللغة و الموضوع و المرجعية الثقافية للمؤلف.

أ) لغة الرسائل البجائية:

تظهر رسائل المؤلف بلغة كثيفة و عميقة تبرز دقة في التركيب وحسن في الكتابة وسطوة في البلاغة و قدرة على الأداء الفني و التصنع فيه، و تنوع في الزخارف الأسلوبية، كما أنها استوفت على جل شروط الكتابة الفنية الإنشائية، بالإضافة إلى تخير المعاني واستخلاصها فوردت الألفاظ بعلاقة حميمة مع المعاني وسعت لدراسة الخصائص البنائية للرسائل التسعة، كما نجد المؤلف قد ضمنها صبغة موسيقية مثلها السجع في نهاية الكلمات، و احتوت على ألفاظ رقيقة مؤثرة نحو: (تقواه، بشراه)، كما نلحظ توظيفه لمصطلحات دينية مثل: (وفقكم الله، رعاكم الله، أعزهم الله، احتملوها في طاعة الرحمان). كما أن المؤلف اعتمد في صياغته للغة الرسائل على جانب من المبالغة و التكلف إذ تظهر مصطلحات لغوية عديدة صعبة الفهم و لا يمكن إظهار معناها إلا بالاعتماد على فهم لمضمون الرسالة ككل، مثل قوله "...و نبذوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم نفرة من أنبت عن الوطن، ونبذ علق المسكن والسكن (...)، و طيرانهم لكل هيلة يسمعون، يقظ للكفار أثبتت"⁽¹⁾.

(1) لافي بروفنصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، ص 162.

ففي كلامه نوع من غريب الألفاظ التي لم تعهد الأذن على سماعها و لا ألفتها سليفة الأقسام الحاضرة و إنما هي مصطلحات قديمة لا يدركها الناس عامة وإنما أشخاص لهم إطلاع واسع ودراية واضحة في مجال الآداب و العلوم، أما ما يتعلق بمضامين هذه الرسائل فقد اختلفت باختلاف الأشخاص الموجهة إليهم.

(ب) مواضيع و مضامين الرسائل البجائية:

الملاحظ عند إطلاعنا على رسائله و دراستها تلون مواضيعها و اختلاف أغراضها و ذلك راجع لاتساع دائرة علاقاته الشخصية و اختلاف أصحاب الرسائل الموجهة إليهم، الذين انحصر معظمهم في السلاطين والولاة والخلفاء و رجال الدولة والعلماء والأدباء والطلبة لقوله: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان و الكافة"⁽¹⁾.

وجل رسائله تحمل طابع ديني إسلامي تنوعت من خلاله إلى رسائل ديوانية ورسائل مزاجية، و رسائل إخوانية و أدبية و يبدو أن هذا التنوع راجع للتطور الزمني و الفكري الذين واكبهما أبو الفضل، فكان غرض هذه الرسائل يختلف مع اختلاف نوعها، فتارة تبعث بغرض النصح و الإرشاد نحو التمسك بالعلم و الحرص الشديد عليه و أخرى تبعث من أجل التوصية للتمسك بتقوى الله و البقاء على دينه و آخذه دستوراً للحياة كما أن هذه الرسائل من الرسالة السادسة و العشرون إلى الرسالة الرابعة و الثلاثون لم تهمل الحديث عن الأوضاع السياسية للبلاد ولا الحديث عن الغزوات و الجهاد، فكانت تبعث رسائل للحث عليه و التهنية إذا ما تم النجاح فيه، كما لم يقتصر التواصل من خلال هذه الرسائل على الإطار الداخلي للدولة الموحدية فقط، بل مع خارجها مثل مراکش، تونس، اشبيلية..

و الملاحظ أيضاً على هذه الرسائل، أنه يمكن لرسالة واحدة أن تشتمل على عدة

مواضيع بالرغم من تصنيفها في نوع واحد مثلاً:

(1) المصدر السابق: ص 169.

الرسالة السادسة و العشرون: هي رسالة مزاجية(*) تحتية إلا أنه ضمت حديثاً عن: النصيح و الإرشاد نحو قوله: "نوصيكم به تقوى الله"(1).

و أيضاً في قوله محرضاً على حماية الدولة ومتحدثاً عن الفتوحات: "و حرضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين (...)"، و عرفوا أن الغرض فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس"(2).

و الملاحظ أيضاً أنها رسائل طويلة حيث كتبت الرسالة الواحدة فيما يتعدى الخمس صفحات، إذن فهي رسائل إذا ما تحدثت عن موضوع ذكرت فيه كل ما يجب ذكره دون نسيان أي أمر متعلق سواء بالدولة أو العلم أو غيرهما.

فإذا كانت هذه الرسائل تظهر قدرة في كتابتها و حسن في سبكها وتنوعاً في سياقتها إذن لابد من أن مؤلف و كاتب هذه الرسائل كان على حسن من الثقافة، وقوة من الصناعة تشير إليها خلفيته و مرجعياته الأدبية.

ج) الخلفية المعرفية لأبي الفضل بن محشرة البجائي:

إن المتأمل في إبداع هذه الرسائل سيلحظ أن الكينونة الإسلامية تبرز بجلاء في ألوانها سواء مخصصة لغرض الجهاد أو لأغراض أخرى، فقد جعل الكاتب نزعه الإسلامية تظهر من خلال كتابته و أبرزها في قوالب مؤثرة تحرك وجدان كل متلق لها بما اختاره من ألفاظ دينية مؤثرة نحو: "نحمد الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، و نصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله، (...)"، و ضياءً مزيحاً لكل غيب و هداية آخذة عن النار، و خير الدنيا و الآخرة"(3).

(*) رسائل مزاجية تحتية: هي قسم من أقسام رسائل المزاجية و تكون من خلال رسالة يبعث بها مسؤول راقى في الدولة إلى أحد الإطارات الخارجيين عن عمل الدولة مثلاً: طالب، أو عالم، مدرس أو السكان.

(1) لافي بروفنصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، ص 180.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: ص 162.

أيضا من خلال كتابته للرسائل على لسان أمير المؤمنين و ابنه نستشف أنه كان ذا مكانة مرموقة في ظل الدولة الموحدية بحيث أنه ينم على قدرته وإطلاعه على فن الكتابة فهو يرسم صورة الشخص المتمكن من عمله العالم بقواعد الأدب و أصوله، بحيث أن المتلقي يشهد نوعا من التأثير في نفسيته و يشد إلى فحوى هذه الرسائل فكأن قدرة كاتب الرسائل تجعل من القارئ يتطلع إلى مزيد من أدبه.

ثم إن توفر الرسائل البجائية على الحمدة و الصلاة على النبي فتحت الباب لاستعمال الآيات القرآنية و تضمين الرسائل للأحاديث النبوية و هي تأكيد على الثقافة الإسلامية للبجائي، فمن الرسالة الأولى (26) إلى الرسالة التاسعة (34) لم تغب التحميدات ولا الآيات القرآنية و لا الدعاء، و ما من شك في أن خبرته و تمتين تصوراته قد زادت في حظوته و مكانته لدى الخليفة ليظل كاتب الرسائل من بعده و في عهد ولديه. و يظهر من إطلاعنا على رسائله أن الكاتب قد أمعن في استعراض اللغة و أجمل في تقديم صور الآخر حتى إن تقديمه يلهب مشاعر القارئ و يأخذ تفكيره، إذ أنه استطاع تقديم أفكار وصورها بواقع مطلق متحرر بواقع مطلق متحرر و تألق في صورة تعبيره، ثم إن الرسائل حافلة بالألفاظ القديمة نحو: هيعة، الأهطاع، الأباطح، الدثور، دياجير...، و كل هذا يدل على معرفته السابقة لنماذج كتبت قبله بالإضافة لإطلاعه على ميراث من الأعراف النثرية المشتركة خاصة و أن كتاب الدواوين قبله عهدوا على كتابة رسائلهم باستهالة دينية و هذا يظهر بوضوح شديد في مطلع رسائله حيث يقول: "سلام عليكم ورحمة الله و بركاته: أما بعد فإن نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله..."⁽¹⁾، وهي ما شاع في العصرين العباسي والأموي، فكل هذه التوظيفات من حيث الشكل الفني و المعجمي كان لها انعكاس أمين على المعرفة الخلفية أو الزاد المعرفي لدى الكاتب، أضف إلى أن معاني الكلمات في الرسائل كلها تظهر لنا قدرة المؤلف في رصد صور الآخر سواء الآخر العدو أو الآخر الصديق.

(1) المصدر السابق: ص 170.

المبحث الثاني: البناء النصي لرسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي

1. الكشف عن البنى الداخلية للرسائل:

يعد البناء النصي من أهم العناصر المشكلة لبناء النص الإنشائي و تفيد في الارتباط بين أجزاء النص، خاصة أن النص الإنشائي يعتمد على الاستقلالية في الألفاظ، و الرسائل البجائية تحيل داخليا بترابط لغوي واضح و قريب بسبب قرب الموضوع من الكاتب أي غرض إنشاء هذه الرسائل.

و لعل المتأمل في هذه الرسائل يجد أن مقدماتها وخاتماتها نص واحد متماسك، و كما سبق لنا الذكر في الفصل الأول أن الرسالة تكتسب خصائصها الفنية من بنيتها الفنية والشكلية، كذلك كان الحال بالنسبة لهذه الرسائل التسعة، والتحليل التالي يقدم رسدا للأقسام الثلاث المشكلة لبنية الرسائل.

(أ) **عرض الرسالة الأولى:** و هي الرسالة السادسة و العشرون في كتاب لافي بروفنصال و الجدول التالي يشير إلى كاتب الرسالة و الأمر بكتابتها و الجهة المرسل إليها.

1- بنية المقدمة:

كاتب الرسالة	المرسل	المرسل إليه
أبو الفضل بن محشرة البجائي	أمير المؤمنين أو الخليفة الموحدي	الطلبة الموحدين والشيوخ والأعيان والأكفاء في مدينة قرطبة

من خلال الجدول نستشف تعددا في الجهة المرسل إليها و أن الرسالة لم تقتصر على شخص بحد ذاته، فمن خلال ذكره للطلبة و الشيوخ و الأعيان والأكفاء نستخلص أن الرسالة اشترك فيها مجموعة من الأشخاص اختلفت مكانتهم العلمية إلا أنها لم تخرج عن

إطار التعليم، نحو قوله: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيده الله بنصره، و أمده بمعونته- إلى الطلبة و الشيوخ و الأعيان و الكافة بقرطبة"(1).

أيضا: استهل الكاتب رسالته قائلا: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره و أمده بعونه - إلى الطلبة و الموحدين و الشيوخ و الأعيان و الكافة بقرطبة، أدام الله كرامتهم بتقواه، و أطلع عليهم و فوده بشراه- سلام عليكم ورحمة الله و بركاته"(2).

إذن فهي رسالة غير مبتورة كونها تبتدئ بالصدر و معنى ذلك أن المکتوب عنه والمكتوب إليه قد حددا، كما أن الكاتب ألحقها بدعاء لأمر المؤمنين و في هذا تعظيم لشأنه و إعلاء لمقامه و فرض لهيبته في نفس المتلقي، أي متلقي الرسالة و ليس القارئ أو المطلع عليها ثم إن عدم إهماله للدعاء للطلبة و الجهة المرسل إليها عندما قال: "أدام الله كرامتهم و أطلع عليهم"(3)، أظهر لهم مدى الاهتمام بهم و أبرز لهم مكانتهم في ظل الدولة الموحدية العظيمة فبالرغم من بعدهم عن مكان إقامة صرح الدولة الموحدية و هذا ما دللت عليه كلمة -قرطبة- إلا أن وجودهم فيها أهم شيء و من خلال دعائه ذكر جانبها من محاسنهم الخلقية و هي الكرم ليختم حديثه بتحية الإسلام العطرة.

ولينتقل في حديثه نجد البجائي يستعمل كلمة -أما بعد- كعنصر انتقال لكنه انتقال في الحديث و ليس انتقال من المقدمة لصلب الموضوع وهي مفارقة لما ألقته الرسائل ومتعارف عليه في عهود سابقة، فيقول: "أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلائه و نعمه و نصلي على محمد نبيه و رسوله و الحمد لله (...)"(4)، فهو يكثر أو بالأحرى يسهب في تضمين الرسالة بالدعاء و يوظف الحمدة و التصلية على

(1) المصدر السابق: ص 162.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه: ص ص 162-163.

النبي الكريم -صلى الله عليه و سلم- و هذا تأكيد على ما ذكر سابقا على أنها رسالة بعيدة عن البتر.

و الملاحظ أيضا الحديث بصيغة الجمع نحو: "فإننا نحمد إليكم الله"، هو اعتبار لمكانة الخليفة التي تعد فوق مستوى المخاطب (المرسل إليه)، زيادة على هذا فإن أبو الفضل قدم صفات يمدح فيها الخليفة فأطال في مدحه حتى كاد هذا المدح يطغى على موضوع الرسالة نحو: "و أيده من نصره، بما يضمن له عادة الأعداء و الإظهار و بيوئه ميوأ الصدق من الاستيلاء و الغلبة و الاقتهار (...)"، و تظهر آيات الله فيه لائحة لذوي الأبصار، (...)"، و الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله مجاهدا أهل الأعراض، المحي سنة الله تعالى (...)"، و وارث مقامه العظيم، المخد شرفه عاليا باقيا يرث الله آكلأ الأعمار"⁽¹⁾، فهو حديث مطول عن صفات الخليفة نحو: الصادق، المجاهد، المقيم لأوامر الله أي المطيع، الشريف، المسيطر القوي و هذا دليل على القدرة البلاغية و الحضور الذهني لكاتبنا، إذن يمكننا أن نلاحظ أن مقدمة الرسالة الأولى يتخللها الطول، و تضم عناصر إبداعية مختلفة الألوان.

2- بنية المضمون:

يظهر موضوع الرسالة باتصال واضح مع مقدمتها إذ نجد البجائي يدخل في صلب الحديث عن مضمون الرسالة باستعماله للفظ "و كتابنا إليكم"⁽²⁾.

وفي هذا المقام تنبيه إلى المرسل إليه أن المؤلف سيخبره ما الغرض من إرسال رسالته إليه، و يلحقها بالدعاء لهم نحو: "كتب الله لكم من أقسام السعادة والبشائر المعادة ما يخلص إلى قلوبكم بطيب مسراه و يحكم وافده بما يجيئكم به الله"⁽³⁾، و في هذا الأمر نية حسنة بالتمني الخير لهؤلاء المستقبلين ذاكرا مدينة -تونس- التابعة للدولة الموحدية

(1) المصدر السابق: ص 163.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: ص 164.

في هذه الفترة، ثم نجده يحدد الموضوع بكلمة "نوصيكم بتقوى الله تعالى و العمل بطاعته و الاستعانة به و التوكل عليه والشكر له سبحانه أولا و آخرأ على ما أولى أولياء أمره من معونة"⁽¹⁾، فالسبب في كتابته إليهم هو توصيتهم بطاعة الله و التوكل عليه و الأخذ بما أوصانا به و شكره على نعمه التي يعيشون فيها و يحضون بها ذلك أنه المسبب لهم فيها، و تمسكهم بمبادئ الإسلام هو ما يمكنهم من التقرب لله عز وجل، و هذا يجعلنا نتساءل على الغاية من هذه التوصية: هل رأى الخليفة تقصيرا من قبل طلابه و علمائه في طاعة الله؟ أم هي تذكير لزيادة التقرب من الله و حرصا منه على التحكم في زمام الأمور قبل ضياعها و خوفه عليهم من الانشغال بحياة الترف و نسيانهم لذكر الله؟ لذلك كان حديثه في أجزاء من الرسالة إجابة عن السبب قائلا: "و الله سبحانه يوزعنا أن نشكر فضله الجزيل، و يلهمنا من محامده الجامع البليغ الحفيل بمنه و عرفتم فيها البركة والتسهيل والخيرة التي جمعت لهم النجاح الميسر الجميع"⁽²⁾.

فيتجلى من توصية الخليفة في رسالته هذه أنه ما بعث بها إلا لتذكيرهم بخيرات الله عز وجل حتى لا ينسوا فضله عليهم و يكثرُوا من شكره على نعمه غير أننا باستكمالنا لتحليل الرسالة نلاحظ دخول موضوع آخر حديث الكاتب ضم الفتوحات و الغزوات التي قام بها الموحدون لإعلاء راية الإسلام أي أنه تحدث عن جانب من السياسة و هي تبين لهم جانبا من المسؤولية و المهام التي يجب عليهم مراعاتها اتجاه دولتهم و دينهم، كما تضم نوعا من التهئة على فوزهم و نجاحهم في غزواتهم التي هدفت إلى نشر ثقافتهم وإثبات حضورهم، يقول البجائي: "...ما سمى في هذه الوجهة الميمونة، و الفتوح الجليلة التي تجاوزت مدى الإفهام، (...) إلى هذه الجهات الساحلية بعد الغزوة المباركة التي أعلى الله بها منار الإسلام و الإيمان"⁽³⁾.

(1) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه: ص 165.

(3) المصدر نفسه: ص 166.

فهو حديث عن أهمية و عظمة هذا الفتح وقيمته بالنسبة للدولة الموحدية لينتقل بقوله: "و حرصوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام، (...)، و بين لهم أنهم استقبلوا هذا الغرض الحميد"⁽¹⁾.

و في قوله هذا تأكيد على أن ما يقدموه من توضيحات لأجل الدين أمر محمود يجازى عليه صاحبه سواء أمام الله أو من عند الخليفة، كما تفصح هذه الرسالة عن القيمة الكبرى التي يتبوؤها هؤلاء الشيوخ و العلماء و الطلبة و الموحدون بصفة عامة في بلاط الدولة الموحدية لقوله: "وعجلنا إليكم هذه البشرى، لتعلموا أنكم لم تعملوا عن الخواطر والأفكار، و أن جهاتكم لا يشغل عنها شيء من شواغل هذه الأقطار، و أنكم معتمدون أبداً من العناية، و الرعاية، بما يعود عليكم بتبليغ الأوطار"⁽²⁾.

و هو موضوع آخر ضمن هذه الرسالة فهو يخبرهم من خلالها أنه لا يغفل عن رعيهم، و يحرص على الاهتمام بأمورهم و تيسير الأمور لهم حتى يسهل عليهم نيل مرادهم.

في الأخير يمكن تلخيص مضمون الرسالة و القول أنها لم تكتف بالحديث عن موضوع واحد بل أدرج ضمنها مواضيع مختلفة يمكن لنا إجمالها كالتالي:

- الإعلام بأخبار الغزوات والفتوحات: فهي تصور لنا جانبا من حدة الدولة الموحدية في قضايا الجهاد و التسلط.
- الثناء على الطلبة و الشيوخ و العلماء و الجهة المرسل إليها: فهو يؤكد لهم من خلال رسالته هذه على مدى اهتمامه بهم و يبين لهم مكانتهم الاجتماعية بالنسبة للدولة.

- الحرص على طاعة الله وإظهار ما من الله به عليهم: فالخليفة يشدد على ضرورة التمسك بمبادئ الإسلام و عدم إنكار نعم الله عز وجل على عبده.

(1) المصدر السابق: ص 168.

(2) المصدر نفسه: ص 169.

3- بنية الخاتمة:

نلاحظ أيضا أن خاتمة الرسالة مرتبطة بمضمونها وكأنها توصية شاملة لما سبق ذكره في مضمون الرسالة، كما أنها اشتملت على تاريخ كتابة هذه الرسالة و وردت بلغة عميقة ترسخ في بال المتلقي و أسماعه يقول: "واجعلوا حديثها في قلوبكم وأسماعكم، واعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاهد أنديتكم واجتماعاتكم، و الله يوليكم من رحمته، ونعمته، ما يعم به ملائكم و يكرم به متبوأكم، بمنه، لا رب غيره، و هو حسبنا نعم الوكيل و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

كتب منتصف شهر شوال سنة ست و سبعين و خمسمائة⁽¹⁾.

فقد تضمنت خاتمة الرسالة عبارات مركزة أكد الخليفة من خلالها تمسكه بطاعة الله عز وجل، كما ألمح لضرورة التميز بهذه الصفة و كانت خاتمة كلامه دعاء خير لهؤلاء المتلقين، و نلاحظ أيضا أنه استوقف حديثه بتحية الإسلام: "و السلام عليكم و رحمة الله وبركاته"، كما ترك تاريخا يشهد على أيام طرحه لهذه الرسالة و هي من أهم الخصائص التي تكتسبها رسائل الخليفة.

تعقيب:

كان هذا مجمل الرسالة الأولى و ما تضمنته من معان، حيث اتسمت بالبسط والتطويل وأخذت طابع التوسع و التفضيل و انتهت إلى شكل الإنشاء من حسن البلاغة والسبك والأداء.

(1) المصدر السابق: ص 169.

ب) عرض الرسالة الثانية:

و هي الرسالة السابعة و العشرون، و وفقا للجدول فهي أيضا من إنشاء أبي الفضل بن طاهر بن محشرة البجائي:

1- بنية المقدمة

كاتب الرسالة	المرسل	المرسل إليه
أبو الفضل بن محشرة البجائي	أمير المؤمنين يعقوب	الطلبة و الشيوخ والأعيان والأكفاء والموحدين في غرناطة

الملاحظ على الجدول أن الجهة المستقبلية للرسائل لم تتغير من حيث رتبته في ظل الدولة الموحدية إلا أن المكان الذي وجهت إليه لم يعد مقتصر على إطار المغرب العربي حاليا فقط، بل تعداه نحو الدول الأخرى و هو غرناطة، والمتأمل في هذا الجدول يلاحظ أن مؤلفها حافظ على الهيكل و الخصائص الموجودة في الرسالة السابقة لها (الرسالة السادسة و العشرون)، فنجدته يستفتحها بالدعاء للخليفة و ابنه تمهيدا منه لاستدراج حب الخليفة و كسب مكانته لدى هؤلاء المتلقين، أضف إلى أنه لم يغفل عن الدعاء لهم و كأنها إشارة منه لقيمتهم وأهميتهم ثم ختم كلامه معهم بتحية الإسلام، يقول: "من الأمير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين -أيدهم الله بنصره- و أمدهم بمعونته- إلى الطلبة و الموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بغرناطة، أدام الله كرامتهم بتقواه، و عرفهم عوارف نعماه ورحمهم سلام عليكم ورحمة الله و بركاته"⁽¹⁾.

ثم نجدته يسهب في شكر الله على نعمه مستعينا بالحمد و السلام والثناء على الله والصلاة على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وتعظيم قدره والترضي عن أصحابه

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 170.

مسهبا في وصف من اتبعوه و عملوا بإرشاداته، بتحليات فخمة كما يظهر الخليفة بصورة الأمير العظيم الذي لا تحصى مكارمه معتبرا إياه من الأكفاء الساهرين على أهل الإسلام والعلم، و ما كان هذا إلا لإعلاء قيمة الخليفة و تذكيرا منه للطلبة بمكانته فيظهر أنه يستعمل -أما بعد- ككلمة مفتاحية للولوج في تقديم صفات حميدة و التي تحمل صبغة دينية إسلامية، يقول: "أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، و نشكره على آلائه ونعمه، و نصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله، و الحمد لله الذي حفظ بهذا الأمر العظيم رباط المسلمين، (...)، والمستبصرين في إتباع سننه و اقتفاء أضوائه الهادية، (...). و استحفظ أمره العزيز في الذائبيين عن حرمانه، (...). و ظهور الحق وانتظامه و ترافدهم على تمشية أمر الله تعالى، و عمر ببركة مساعيهم، مأخذهم (...). والصلاة على محمد نبيه المصطفى، و رسوله الأكرم الذي أطفأ الله به احتدام الكفر، و أزاح بأنواره الباهرة غيب الشوك و ظلامه (...). و أعلى الحق منار الحق و عمامه، (...). ضاعف الله له و لعترته الطيبين و صحابته الأكرمين"⁽¹⁾.

ف نجد في هذا الوصف إشادة كبيرة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- و فخرا بمن اتبعه فيذهب لتعداد الخيرات التي تصب في صالح متبعيه من صلاح و فوز عظيم بالحياة الدنيا أو الآخرة، ليعود للحديث عن الخليفة مثنيا عليه و مؤكدا على نعوت آبائه وأجداده وحفاظا على ما تركوه فيذكر ما خلفوه من أعمال و معارف تستحق الثناء و الحفاظ عليها يقول: "والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، علم الهدى الذي اختاره الله تعالى للهداية وارتضاه لتجديد شريعة جده، و شفى بعلومه الجليلة، و براهينه الواضحة القطيعة أدواء الجهل و أسقامه (...). و عن صاحبه و خليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين القائم عن أمر الله، و المعمل في إعلاء كلمته ودعوته شأنه و حسامه، (...). و الدعاء لأمر المؤمنين

(1) المصدر السابق: ص 171.

بنصر يكسب السعد غمامه، و يجزل الجد أقسامه و يقتضي الفوز المسعد و استمراره إلى قيام الساعة و دوامه⁽¹⁾.

فهو يطيل المدح و المفاخرة بالخليفة فيكثر من الألفاظ المؤثرة في نفوس المتلقين والتي تدل على عظمته و مقامه و تؤكد للمتلقي أنه تابع للخليفة، كما أننا نستنتج نوعاً من الطلب و المواساة للدعاء لأمير المؤمنين.

نستنتج من تحليلنا لبنية مقدمة هذه الرسالة أنها اشتملت على بعض من خصائص كتابة الرسائل نحو:

- استعمال الحمدلة و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم.
- كتابة التحية -السلام عليكم- في آخر مقدمة الرسالة.
- استعمال عبارة الربط -أما بعد-

2- بنية المضمون

بعد إظهار الوجدان المسكون بقضايا إسلامية يصرح كاتب الرسالة عن سبب كتابته إياها متخلصاً إلى غرض هذه الرسالة قائلاً: "و هذا كتابنا إليكم -أسمعكم من بشائر الأمر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحاً"⁽²⁾.

فهو يستعمل جملة -هذا كتابنا إليكم- ليدخل مباشرة في صلب الموضوع ثم يفيدهم أن هدفه لا ضرر فيه فيبعث الطمأنينة في نفوس المتلقين، لأنه وظف كلمات تهدئ النفس و البال نحو -أسمعكم الله ما يملأ قلوبكم ارتياحاً- ثم يسهب في استعمال الدعاء متخيراً الألفاظ المؤثرة في الطلبة و الشيوخ و من والاهم حتى يسترعي انتباههم و يشد اهتمامهم يقول: "نوصيكم بتقوى الله العظيم، و العمل بطاعته، و التوكل عليه وأن توقنوا بأن هذا

(1) المصدر السابق: ص 171.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

الأمر السعيد محفوظ المقام، منصور الأعلام، مسدد النقض و الإبرام، (...)، و أنه المصيب المنصور المفتوح له الذي لا يضره من عائده و لا من خذله⁽¹⁾.

فهو يفرد لهم قضية دينية و يوصيهم بها و هي طاعة الله سبحانه و تعالى و تفويض الأمور إليه و في ذلك منفعة لهم و خير يعود عليهم فيذكر لهم النعم الجمة جزاءً على فعلهم الخير هذا، فهو يستتصرهم و يدعوهم للحفاظ على وعد الدين الإسلامي، ليستمر في تعداد قدرة الله عز وجل على تحقيق آمال و طموحات المؤمن به و المتوكل عليه فيقول: "بشرى صادقة الدلائل، ويسرى صادقة المخايل، و أمر محروس لا يقدر فيه كيد كائد ولا يحل عقوده المبرمة، و روابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة (...)، حتى ينجز الله له وعده، (...)، إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، (...). والحمد لله رب العالمين"⁽²⁾.

فنجده يضمن اقتباسات من القرآن الكريم في نهاية حديثه نحو -الحمد لله رب العالمين-، كما نستشف أن هذه الرسالة تعبر عن مجريات بعض الأمور الجهادية و ما يمكن تصويره من علاقات قوية و عهود مرعية فنجد أنه يؤكد للطلبة مسعاهم ودورهم في إعلاء القيم التي لها مساس بحركة الجهاد و منزلتهم في تلقين أصول هذا الجهاد فيقول: "و إنه وفقكم الله و سدد خطاكم، (...)، تنزل رغبات الموحدين -أعزهم الله- و إخوانهم العرب -وفقهم الله - (...). ويعرفهم بأن هذا الأمر له وقت يرتقب لعقده فيه وإبرامه، ولما أذن الله تعالى في دنو الميقات المنتظر و اقترابه، و أراد سبحانه إنجاز وعده الكريم لسائليه و طلابه"⁽³⁾.

فالرسالة تحمل إشارة لانطلاق الجهاد و إعلانا لغربة الموحدين في خوض غماره وبأن الساعة المنتظرة قد حانت و كأن الجهاد مكافأة على طاعته سبحانه و تعالى.

(1) المصدر السابق: ص 172.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: ص 173.

ثم ينقل لهم خبر الفوز بإحدى المعارك و يهنئهم على فوزهم الميمون دون أن ينسى أن هذا توفيق من العلي العزيز و أن السبب في فوزهم هو التمسك بعقيدتهم الإسلامية قائلا: "و رجع الموحدون من غزوتهم المبرورة التي أعز الله بها المسلمين، وكرم بإحراز أجرها، و استخزان ذخرها، حالهم و مآلهم، وبلغهم من كناية أعدائهم وتدويخ أكنافهم ما تجاوز آمالهم و أمانهم"⁽¹⁾.

و يستمر في وصف الحالة النفسية التي أصابت الموحدين بهذا الفوز من سرور وفرح مهنئا إياهم على ما استحقوه وما حققوه، لذلك فهو يكتب الرسالة حتى يثير الرغبة على الجهاد من خلال وصفه للمكانة التي يتبوأها المجاهدون بين أقرانهم، و نجده يعلمهم على الوحدة الموحدية التي قام بها الموحدون من أجل تحقيق التوسع أكثر، قائلا: "أجمع الموحدون -أعانهم الله- و من -أنضاف إليهم من الأجناد، و من كافة العرب و أعيان أهل البلاد"⁽²⁾، إلى هنا هي إعلان و إخبار بالتحام الشمل ليعلن عن سبب هذا الاتحاد نحو: "فكان منهم إلى المبادرة و الإسراع و الاعناق إلى إجابة داعية والتلقي لرايته المرفوعة، (...)، و لماذا تحقق منهم خلوص الضمائر واستواء البواطن والظواهر، مكنوا من مرادهم و أحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجا"⁽³⁾.

فهو يتحدث عن أخذ الأوامر و الشورى فيما بينهم حتى يسمح لهم من قبل الخليفة بالجهاد و كان لهم ذلك، ثم يستمر في ذكر بعض القوانين التي لابد من توفرها حتى يحققوا معالم الجهاد يقول: "و التزموا فروض البيعة بشروطها و قيودها و وقفوا عند رسومها المعلومة و حدودها، (...)، أحكام حقوق الطاعة الصحيحة و عهودها"⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق: ص 173.

(2) المصدر نفسه: ص 174.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

و الملاحظ أن الكاتب لم يذكر مصطلح الجهاد مباشرة و إنما عوضه بألفاظ تدل عليه و هو ما يزيد من جمالية النص و يبعده عن الرتابة والتكرار نحو: الغزوة، البيعة، الطاعة الصحيحة، أيديهم، الأمر الأعظم.

ثم يخلص ليخبر أن مثل هذه الأمور (الجهاد) تجعل من الفرد والأشخاص ذو مكانات قيمة لدى الخليفة و أنه المسؤول الأول في إيراد مثل هذه الطلبات لولاته و عماله و حكامه، وهي تأكيد على وشائج الرابطة الدينية و تأكيد لأواصر الأخوة و وحدة الشعوب الموحدية لذلك فهو يؤكد على الامتثال لأوامر الخليفة و الاقتداء بها و أن إخباره هذا ما هو إلا حبا بهم حتى ينالوا الأجر و الثواب فيقول: "و رأينا أن نعرفكم بهذا الأمر الأعظم لتأخذوا منه الحظ الأوفر، و تتالوا مذخور أجره الأكبر و تدخلوا بالانتظام في سلكه مداخل طائفته المفلحة"⁽¹⁾.

و في النهاية يظهر أن الرسالة قد اشتملت على ثلاث موضوعات بصيغ متفاوتة الأهمية يمكن إجمالها على النحو التالي:

- إعلاء أواصر الأخوة و الوحدة: فهو ضرب لهم أمثلة عديدة للتمسك ببعضهم البعض حتى يكونوا قوة تهابها الأمم الأخرى.
- توحيد الله و طاعته و التمسك بالإسلام: و ذلك أنه يستهل في مطلع موضوعاته التوصية على الحفاظ على دين الله و التمسك بتعاليم الإسلام والاقتداء بالنبي - صلى الله عليه و سلم-.
- الدعوة للجهاد و التهنية بالفتوحات: و هو الموضوع الغالب في الرسالة حيث تحدث المؤلف عنه مطولا.

3- بنية الخاتمة

انتهت الرسالة وفقا لما عهدته نهايات الرسائل من دعاء و توصية و تذكير، إذ نلاحظ أن البجائي حرص على ملائمة نهايتها لمقامها المذكور إذ أنه يوصي الجهات المستقبلية

(1) المصدر السابق: ص 175.

للمرسلة على لسان الخليفة باتخاذ ما جاء فيها و الانقياد لما ذكرته و الإخبار به لجهاتهم المعنية بالأمر لا حكر ما ذكر و إهماله، فكانت لغته راقية مؤثرة حملت معاني عميقة، وقد ذيل لها بتاريخ كتابتها نحو: "أدام الله كرامتكم بتقواه، اعتصموا بكهفه الأوفى و حرزه و اغتنموا الدعة و الهدون في كنف آمنه الشامل، (...)" و اكتبوا بنسخها لجميع جهاتكم إن شاء الله، و السلام عليكم و رحمة الله وبركاته، كتب في السابع من جمادى الأولى عام ثمانين و خمسمائة⁽¹⁾.

تعقيب:

وفقا لما ورد في هذه الرسالة الثانية فإننا نلاحظ تشابهات وتقاطع مع الرسالة الأولى في بعض الجوانب من حيث البناء الفني أو الشكلي و الألفاظ اللغوية الموحية اللغوية باللمسة الدينية الإسلامية و في طريقة الإبداع التأليفي، و نلاحظ بعض الاختلافات على مستوى الخصائص مثل الطول و الإسهاب فهي لم تكن بطول الرسالة الأولى.

ج) عرض الرسالة الثالثة:

و هي الرسالة الثامنة و العشرون وفقا لترتيب لافي بروفنصال في كتابه.

1- بنية المقدمة

المرسل إليه	المرسل	كاتب الرسالة
الطلبة والموحدين والأعيان والكافة في إشبيلية	من حفيد بن أمير المؤمنين ابن الخليفة يعقوب	أبو الفضل بن محشرة البجائي

لم تختلف مقدمة الرسالة الثالثة عن سابقتها فنجد الكاتب اعتمد في ابتداءها على ما عودتنا بدايات رسائله، إذ أنه حدد باعث الرسالة و إن لم يذكر اسمه تحديدا بل نسب إليه

(1) المصدر السابق: ص 176.

من معرفة أهله و ذكر متلقيها و مسكنه فقال: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدون والأشياخ والأعيان و الكافة بإشبيلية، أدام الله توفيقهم و كرامتهم بتقواه وأعانهم على إتباع أمره والعمل بما يرضاه -سلام عليكم ورحمة الله"(1).

و الملاحظ أنها نفس الديباجة التي عودنا على ذكرها في مطلع كل رسالة قام بكتابتها، كما أنها تحمل نفس الخصائص التي احتوتها الرسائل التي كتبت قبلها فضمنها السلام و استرسل في كتابتها بالاستعانة على لفظه -أما بعد- مع إدراج الحمدلة و الصلاة على النبي، و شكر الله على النعم التي سخرها لهم و كأنه بهذا الفعل يحرص و يذكر على أنه لا ينسى إعطاء الله حقه من الشكر و الحمد و أن الله لا ينسى عبدا إذا شكره، لنجده مواصلا حديثه مادحا من اتبع النبي و اقتدى به وأخذ عنه و عمل بتعاليم الإسلام و جعلها دستور حياته، ليثبت و يؤكد أن هذه الصفات هي خاصية تميز بها الخليفة و لم تغب عن حكام الدولة الموحدية جلهم فيقول: "أما بعد فإن نحمد إليكم الذي لا إله إلا هو، و نشكره على آلائه و نعمه، و نصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله، و الحمد لله الذي شيد بهذا الأمر العزيز منار الحق، (...)، والصلاة على محمد نبيه المصطفى الذي أراح الله به ظلم الكفر و عناءه و الرضا عن الإمام المعصوم، الذي رفع الله بظهوره علم الشرع ولوائه و وفي الكافة بعلمه الواضح، و هديه المستقيم الصالح، وجدد به الإسلام، (...). والمعمل في تمشيهِ دعوته و تتميم بداعته صوارمه و آرائه، و الدعاء إلى سيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يجمع أعداءه، وتأيد يصحب عزائمه و أنهاءه إلى قيام الساعة و بقاءه"(2).

فهو يطيل في مدح خلفائه بتعداد محاسنهم و مآثرهم و أفضالهم وأنهم الأحق بتولي مناصبهم و كلمة -سيدنا - هي تذكير بمكانة كل فرد في الدولة الموحدية و إعلاء لمكانة

(1) المصدر السابق: ص 176.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ال خليفة المقصود، و الملاحظ على أن مقدمة هذه الرسالة لم تكن بنفس طول سابقتها وتضمنت وصفا لصفات الخليفة و أخلاق النبي و مكانة من اتبعه و اهتدى لتعاليمه.

2- بنية المضمون

لقد خصص الكاتب لهذه الرسالة موضوعا مغايرا عن المواضيع التي ألفناها في الرسالتين الأولى و الثانية، فبالرغم من وجود تشابه في الخصائص الأسلوبية إلا أننا نجده يكتب للطلبة و من ناظرهم من أجل اتباع من سبقهم و الاقتداء بهم و الأخذ بأفعال الأولين الصالحين و يأمرهم بالعودة والرجوع للطريق الحق الصواب و هذا يحملنا على التفكير بحدوث شتات في البلاد الإشبيلية التي تملكها الموحدين، و في خضم هذا يضرب لهم الأمثال بأهالي -مراكش- و يأمرهم بالنظر لطريقة عيشهم، إذ كانت طاعة الله بابهم في النجاة و وسيلة إعانة لهم في أمورهم فيقول: "و هذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم من إرشاد ما يسلك سبل الاهتداء، و يحملكم على حجة الحق السواء و يوضح لكم معالم الاقتداء، بهدي السلف الصالح- من حضرة مراكش، (...)، والتوكل على الله و أن توقنوا بأنه جعل هذا الأمر العظيم منجاة من الزلال و عصمة و نعمة على الخلائق ورحمة، (...)، و هداية (...)"⁽¹⁾، لينتقل لذكر غرض كتابته إليهم و التواصل معهم قائلا: "إن الناس تجوزوا في أمر الرب تجوزا اغفلوا فيه الاجتهاد، و رتعا حوله حماه رتعا أوقعهم فيه أوكاد، و تسامحوا فيه تسامحا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد، (...)، و لم يقفوا عند قوله عليه السلام: "ما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام"، (...)، والحالة الذميمة يزداد بهم تماديها، و العادة السيئة تحجب عنهم الحقيقة (...)، و تمادي الذهول والإغفال عن الواجب، عن تدارك زلاتهم و تلافيها، و الذي أجاز فيه مباح البيع والشراء"⁽²⁾، فهو يكتب إليهم ليخبرهم ما بلغه من تقصير منهم في حق الله و عقيدته وتماديهم في الخروج عن طاعته و عما ألفه المسلمون فيذكر لهم أحوالهم

(1) المصدر السابق: ص 177.

(2) المصدر نفسه: ص 178.

المزرية ويعرض عليهم تجاوزاتهم و تمردهم في التعاليم الإسلامية و هي أمر يتنافى مع تقاليد الدولة الموحدية و يؤكد كلامه بتضمينه حديثا نبويا يظهر الحرام بوضوح، كما يحدثهم عن ابتعادهم عن تعاليم السلف من خلفاء و أئمة و تجاوز لحدود الله بتغييرهم لعادات أحلوها بعدما كانت محرمة مثل شرب الخمر و أكل الربا و عدم دفع أجور الزكاة فيقول: "(...)، فتعدى الناس ما حد لهم و ارتكبوا من اللبس و الشبهات في ظلم الاختلاط"⁽¹⁾.

ثم يعود لتأكيد لهم ما سمعه و تلقاه عنهم في إشبيلية و يخبرهم أنه السبب من أجل مراسلتهم لذلك يؤكد عليهم على العودة لصوابهم والمسارة إلى طمس معالم خطأهم وتنظيف بلادهم و ناسهم و هجر المحرمات التي استباحوها و الأخذ بأصول الشريعة والامتثال لأوامر الله أولا، والنبي ثانيا، و الخليفة ثالثا فيقول: "فإذا وفاكم كتابنا هذا بحول الله -عز وجل- فاقطعوه جملة و تفصيلا، و لا توجدوا أحدا إلى بيعه سبيلا، و اخلوا الحوانيت التي كان يباع فيها منه و أفقروها و أصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيروها و الديار المعروفة ببيعة أيضا لا تتركوها، و عاقبوا من تجدونه عنده أشد عقوبة، و من وجدتم عنده رائحته كائنا من كان فأقيموا عليه ما رسمه الشرع في ذلك وحده"⁽²⁾.

فهو يتحدث عن الخمر و يأمرهم بتطبيق قواعد صارمة على أي شخص يملكه ويأخذ تدابير قاسية لمعاقبة كل من يرتبط به دون تمييز إلى حد تطبيق ما أقرته الشريعة ليذكر أيضا حق إخراج الزكاة على يد شخص وضع الأمانة في يده فيقول: "تأمرون العمال هنا لكم بدفع جميع ما تحصل في هذا العالم من زكاة الفطر للشيخ القاضي أبي المكارم ليوزعه على الضعفاء و المساكين"⁽³⁾.

(1) المصدر السابق: ص 178.

(2) المصدر نفسه: ص 179.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

من خلال رسالته يظهر أن الخليفة قد رأى تقصير من قبل سكان إشبيلية التابعة للوائه و رأى تجاوزات لم يسمح ببقائها لذلك عمد إلى مراسلة أكفائه و من يعتمد عليهم للعودة بهذا البلد للصالح و الفلاح.

الملاحظ من خلال تحليلنا لمضمون هذه الرسالة أنها اهتمت بموضوع واحد وأسرفت في الحديث عنه وهو "الدعوة للصالح" ذلك أن الخليفة رأى تأثيرا غير التأثير العربي على أهالي إشبيلية فعمد إلى دعوته للرجوع للصواب و طريق الحق مذكرا إياهم بحقيقتهم الإسلامية، ضاربا لهم الأمثال بمن سبقهم.

3- بنية الخاتمة

هي تذكير و تحذير من الخليفة لمن أظلم طريقه، و توصية للمصلحين من طلبة ومشايخ على العمل لتحقيق الصالح و طمس الفساد، داعيا لهم بالتوفيق والصالح، طالبا منهم العهد الأكيد على تحقيق مطالبه، كما أنه انتهى بتاريخ كتابة هذه الرسالة يقول: "خاطبو بنسخ كتابنا هذا سائر نواحيكم و جنباتكم، و مشوه بالجد المستوفى، و الله يوفقكم من ذلك لما يزلف عنده و يمتري عاجلا و آجلا إحسانه، بمنه لا رب غيره، فاعثدوا على ذلك إن شاء الله، عوجل، و السلام عليكم و رحمة الله وبركاته، كتب عقب شهر رمضان سنة ثمانين و خمسمائة"⁽¹⁾.

تعقيب:

الملاحظ أن هذه الرسالة قد استقلت عن غيرها فلم تشهد تداخلا في المواضيع، و لا إسهابا في المدح، و الثناء و إنما كان الحديث عن موضوع واحد، فشهدت نوعا من الاختلاف والتغيير في بنية مضمونها.

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 180.

(د) عرض الرسالة الرابعة:

و هي الرسالة التاسعة و العشرون في كتاب مجموع الرسائل الموحدية

1- بنية المقدمة

كاتب الرسالة	المرسل	المرسل إليه
أبو الفضل بن محشرة البجائي	من حفيد بن أمير المؤمنين	الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان ب إشبيلية

نلاحظ نفس المعلومات الواردة في الرسائل الأولى حيث ظل البجائي هو كاتب الرسالة من عهد الخليفة إلى عهد حفيده، لكن الملاحظ أن الكاتب لا يذكر اسم الخليفة مباشرة و لا يذكر اسم حفيده ولا ابنه، فنجد في هذه الرسالة ضمنها كل التعاريف القائمة عليها الرسائل من حيث المرسل والمرسل إليه و هو ما أظهره لنا الجدول، كما اشتملت على التحية و الدعاء والحمدلة والشكر على النعم كسابقاتها من الرسائل و هي تكملة للرسالة التي سبقتها، كونها رد من قبل الخليفة على الشيوخ و الطلبة لامثالهم لأوامره وتنفيذها فيقول: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين -أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدين و الأشياخ و الأعيان والكافة بإشبيلية - أدام الله كرامتهم بتقواه (...)، و سلام عليكم و رحمة الله و بركاته"⁽¹⁾.

الملاحظ أن كل رسائله المذكورة لحد الآن لا تخلو من تحية الإسلام، و إن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على الأمن و الاستقرار والطمأنينة التي يزفها الخليفة لهذه الجهات، ثم يسترسل في مخاطبة جهاته بهذه المناسبة التي يعتبرها خيرة و بشرى محمودة عنده فيتخير لها معاني لائقة و يعبر عن سعادته مطولا فينتقل لحديثه موظفا كلمة -أما بعد- فيقول: "أما بعد فإن نحمد إلكم الله الذي لا إله إلا هو، و نشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله، و الحمد لله الذي هدم بهذا الأمر

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 180.

العزیز أصول الباطل و فروعه، و طمس بأعلامه الواضحة، وآياته البينة اللائحة، رسوم الظلال و ربوعه، و هزم بأمره القاهر، (...)، أحزاب الشيطان و جموعه، و بدد جماعة الخبيث و جموعه، واستأصل صباية الكفر البائد كما استأصل ينبوعه، (...) وعرفه في كل معالجة و مطاولة عوائد الإعلاء والإظهار، (...)، و جعل المصيب المنصور المفتوح له موالیه و مطيعه، (...)، وأجرى عوائده الكريمة على إذلالها، (...) و متمما صنيعة⁽¹⁾.

فهو يسهب في رصد تنفيذ أوامره و ما حقق جراء تنفيذ هذه الأوامر و طاعته من تبدد للكفر و ضياع للفساد و زواله، إلى أن يصلي ويسلم على الرسول الكريم فنجدته يتحدث بإطناب و شوق كبير يظهر لدى قارئ الرسالة في ذكر صفات النبي محمد -صلى الله عليه و سلم- و يحصي أفضال هذه الأخلاق على المرء المتبع للهدى قائلا: "والصلوات على محمد نبيه المصطفى و رسوله الأكرم المجتبي، الذي شئت الله به منظوم شمل الكفر و مجموعته و ختم بنبوته الخاتمة، (...)، وألزم الأحمر و الأسود مسنون دينه القيم و مشروعه، و جعله وسيلا له يوم المحشر و شفيعة⁽²⁾".

فهو يقدم صفات تتجي صاحبها من الظلمات و تبعد عنه كل شر و ظلم، ليستطرد في ذكر أخلاق الإمام الخليفة ذاكره فضله في إتمام مهمة الحفاظ على تعاليم الإسلام مبرزاً تضحياته راصدا أعماله بكلام معسول قائلا: "والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي لاعم به شعث الإسلام و صدوعه، و أبان بهدايته المنقذة من الضلال، و قدر عود الإسلام بدعوته، على ما كان عليه في بدايته، (...)، و عن صاحبه و خليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين الذي حالف في القيام بأمر الله سهادته و نافر هجوعه و استلان في جهاد أعدائه، (...)، و تبليغ أمره العزيز إلى عليّة تتميمه و إنهائه خشنة مستصعبه، والدعاء لسيدنا و مولانا الإمام أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير

(1) المصدر السابق: ص ص 180-181.

(2) المصدر نفسه: ص 181.

المؤمنين، (...)، ويضع في قبضة قهره وغلبته، مناويه وخليعه و يجعل من عائد أمره وخالف في طاعته سره و جهره، (...)، فكريمه و رفيعه فرفيعه⁽¹⁾.

فالنظر في مقدمة هذه الرسالة و طبيعتها يلاحظ أنها تكفلت بوصف مطول مسهب ذكرت فيه لوحات مختلفة من المشاعر الجياشة لحب الرسول و فضله على الأمة جمعاء و لقيمة الخليفة و أهمية مكانته في إعلاء راية الإسلام، كذلك يظهر أن الكاتب اعتمد على تركيب واحد من حيث التزام الفاتحة المشتملة على الثناء الصادق للذات النبوية فنحس بنزعة إسلامية قوية.

2- بنية المضمون

يعود الكاتب ليدخل صلب الموضوع باستعمال كلمة -و هذا كتابنا إليكم- المتمثل في تحقيق النصر الروحي و الديني و إذ اقتدى أهالي إشبيلية و مراكش بتعاليم الدين و امتثلوا لأوامر الخليفة فحققوا قفزة من الظلمات التي كادت تؤدي بهم للتهلكة إلى النور الذي يعيشون فيه حياة الخير و الطمأنينة، فهو يهنئ قادة هذه الدولة بقدرتهم على التحكم في زمام الأمور و يصور شفاء أمته من هذا المرض الخطير و يبدي سروره و فرحه بنجاحهم يقول: "وهذا كتابنا إليكم -كتب الله لكم تعرف المسرات و البشائر (...)، و نحن نحمد الله تعالى على نعمه التي لا يحصيها العدو قسمة التي لا يحيط بها الرسم والجد، (...)، و نسأله سبحانه توفيقا إلى القيام بشكرها يؤيده التسديد و العضد، (...)" والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، و الاستعانة به و التوكل عليه⁽²⁾.

و لا يقف عند هذا الحد، بل يوضح مساوئ الحالة التي كانت ستؤول إليها نفوسهم لولا قدرتهم على الخروج من هذه الدوامة قائلا: "و قد علمتم -وفقكم الله وسددكم، وأهداكم إلى مصالح و أرشدكم و أعانكم على الاعتصام بعروة الطاعة الوثقى وأنجدكم -ما كانت عليه حالة الكافر الغادر، اللعين الخائن الخاسر، بقية الحثالة الغاوية و سؤر الكفر

(1) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه: ص 182.

الدائر، شقي ميورقه -لعنة الله-، (...)، و المغالطة بانعقاده عقيدته عن المشايعة والمولاة، (...)، و مستتر بصدوده عن الجادة الواضحة وعدوله، (...)، متربص لدائرة السوء العائدة عليه فيما رame من عناد وانتزاء⁽¹⁾.

فهو لا يتوقف عن رصد صفات الدناءة ويكثر من المعاني التي توضح هذه الأخلاق السيئة فيقول: "و كفر بأنعم الله فذاق لباس جوعه و خوفه و رام السمو إلى منال حكم الله برده خاسئاً و صرفه، و تلك عادة الله الكريمة فيمن حاد أمره الذي اجتباه لإحياء دينه (...)، و الحمد لله على مننه الذي لا يفي الوسع بإحصائها و تعدادها"⁽²⁾.

فالبجائي يقدم النعوت الخسيسة التي انفرد بها من خائنته نفسه وضعف رؤياه فيطنب في عرضها و يظهر تماديه ليصل للسيطرة على جزاء من دولة الموحدين، و قد أكد أيضا الكاتب في رسالته هذه خبر ارتداد بعض الولاة و العاملين على حكمه فهو ينقل الخبر إليهم حتى يحذرهم من أطماع غيرهم، فهو يخبرهم بشأن من شؤونه الخاصة.

ثم يعود ليهيئ المتلقي أكثر لما يريده حقيقة من هذا الغرض فنجد حدد هذه المرة الأشخاص كل باسمه و نسب لهم الأوامر كل بحسب مكانته يقول: "و لما عنت للفساق الفرصة، اغتتم بزعمه انتهازها و لما مكنته الغرة، حاول برأيه البائس اقتناصها واحتيازها، (...)، و قدر في سعيه الخاسر، (...)، فداخل أو باشا ممن كان ببجاية ممن رق دينه، و ضعف إيمانه و يقينه، (...)، و لما قر فيها قراره، و انتشر بها فساقه وفجاره، (...)، و اتصلت به أوغاد الفتنة و أوشابها، وتجمع له من أشباهه في الجهالة"⁽³⁾.

فالخليفة ينقل أخبار من تمرد على حكمه و سولت له نفسه طمعا في الخروج عن خلافته و قهر الدولة الموحدية، و يذكر جزء من البلدان التي يحاولون التطاول على

(1) المصدر السابق: ص 182.

(2) المصدر نفسه: ص 183 .

(3) المصدر نفسه: ص ص 183 - 184.

أراضيها نحو: "الجزائر، مليانة، أشير، بجاية، القلعة، قسنطينة، يقول: "فتطوف على الجزائر و مليانة و أشير و القلعة و بجاية، و قد استباح حرمو أهلها، وعركها حرك الرحي بثقالها، (...)، غافلا عن قوله سبحانه و تعالى: "و سيعلم الكافر لمن عقبي الدار"(1)، فهو يحذرهم و يصور صعوبات هذا الأمر الخطير ويشحن نفسياتهم حتى يحسوا بمدى خطورة الوضع، ثم ينتقل إلى الجهات المعنية ويطيل في إعطاء الأوامر فيقول: "فوجهنا من الطلبة -أعانهم الله- من نظر في أمر الأسطول المبارك و إعداده و تهيئته بما يصلحه من عدده و أعداده، وأمرناهم بالإنحياز في ذلك في أقرب ما يمكن من أوقات الزمان و أماده"(2).

فهو يأمرهم و يستغيث بهم في نفس الوقت للاستعداد للجهاد و تهيئة أنفسهم لخوض غمار هذه الحرب و يمضي في تلقين طلباته نحو: "و جردنا من الموحدين أعزهم الله -عسكرا منصورا، و جمعا مباركا موفورا و قدمنا عليهم من الطلبة -أعزهم الله- من انهضناه لتدبيره، وعصبنا به النظر في أموره، و وصيناه بتقوى الله تعالى في قليل أمره وكثيره، (...)، فنفذوا على بركة الله و يمينه، (...)، يسددهم و يرشدهم، (...)، قصدهم وتعددهم"(3)، ثم يفرد لهم مقصده من هذا الغزو الذي سيحاولون به رفع الظلم والقهر وإحلال العدل و المساواة بين سكان تلك المناطق، كما يخبرهم أن هذا الظالم الجائر على سلطان زمانه لا يخشى ما يعدونه له لذا لابد لهم من التميز بالشجاعة لتصدي له والإسراع بوضع حد له فيقول: "و في خلال هذه المحاولات و أثناء هذه المآخذ السعيدة والمولات طال الأمد على الشقي فازداد تهورا و خبلا، (...)، فطلب الطعن وحده

(1) المصدر السابق: ص 185.

(2) المصدر نفسه: ص 186.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

والجهاد، جرأة على الله و كفرًا به، (...)، حتى دهمه أمر الله الذي لا ينجو منه هارب، (...)»⁽¹⁾.

فالبجائي ينقل على لسان خليفته قوة هذا المستبد و بطشه و يعلمهم بعدم تراجعهم وارتفاع قوة مده الاستعماري، ثم نجده يذهب لتقدير و شكر ما يقوم به الموحدين وكل من تصدى لهذا العدو المبين، و يظهر لهم سروره لعدم إيتابهم له و الوقوع في شرك الكفر معه يقول: "و استمر الموحدون -أعزهم الله- على سيرهم المبرور، و سعيهم الصالح المشكور، و قصدهم الموقوف على رضا الله تعالى، (...)، إلى أن وصلوا مليانة، فألقى أهلها بالمقاليد و لانوا بالاعتصام السعيد، وتبرؤوا من الفرقة الغوية، (...)، و اعتذروا أنهم كانوا في قبضة القهر، (...)، و فرَّ الأشقياء الذين كانوا بها على وجوههم و ساروا منجرين إلى مصارع حتوفهم، (...)، و لم يفلت أحد من عددهم، و اقتدى الرعايا-وفقههم الله- بهذا الفعل السديد و أشعروا كل من قدروا عليه من الأشقياء شعار التنقيف، (...) وجاءوا بهم إلى الموحدين، (...)، مسوقين بنبوع المذلة و الاستكانة"⁽²⁾.

فهو يصف معركة الموحدين ضد المتسلطين و العاصيين لأوامر الدولة، كما أنه يكشف فداحة هذه الحادثة و فرار من نافى قواعد الدولة و نقض وعودها كما يذكر الصراع الدائر بين الفرقة المستقبلية لأوامره بالسعادة و الترحيب و بين الرافضين الذي نعتهم بـ"الفرقة الغوية"، إلا أنه يبدي سروره بفوز الموحدين على حسابهم، كما يساوي في شكره الطلبة مع الموحدين و يسهب في وصف عملياتهم الجهادية فيرصد الطريقة التي قدموا و عرضوا بها جهودهم قائلاً: "وكان طلبة الأسطول اجتمعوا بالموحدين أعزهم الله بتلمسان -كلأها الله-"⁽³⁾، فيذكر مكان تلاقيهم و نقطة انطلاقهم و اتجاههم و هي تلمسان عاصمتهم، ليتحدث عما اتفقوا عليه و ما تبادلوه من آراء قائلاً: "...و رسموا أن

(1) المصدر السابق: ص 186.

(2) المصدر نفسه: ص 188.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

يكون اجتماعهم بالجزائر فسبقت الأساطيل المؤيدة إليها، (...)، فتيسر لهم مرامها، وتجلي بأنوار هذه الدعوة العلية، وبادر أهلها إلى فتح أبوابها، و القبض على ما أمكنهم ممن كان عندهم من أوباش الضلالة وأوشابها، و بان للشرمذة اللعينة سوء مصيرها ومآبها، فتمكنت من ابن عم الشقي الغوي و جماعة من أعيان شياطينه الرجماء⁽¹⁾.

فهو يؤكد على تحقق ما كان يرجوه و يذكر جهود الأساطيل والولاة و الحكام لقمع هذا الشقي الغوي كما سماه و يرصد طريقة وقوعه في الفخ و انتهاء عهده الظالم البعيد عن عادات الدولة الموحدية بحسبه.

ومضت الرسالة بعد ذلك تجسد جهود المتقنين و الشخصيات التي حاولت أن تتوسط لهذا الطاغية و يبرهنوا له حسن نية هذا الخليفة فيتوسع في شرح ظروف هذه الحملة الذي يراد بها الإعلام بمجريات الحركة الجهادية طالبا منهم الاستعداد و الإمداد فاختر شخصية من طلبة الأسطول و جعله رسوله في هذا الأمر عرف باسم -أبو محمد عبد الله بن أبي اسحاق- فيقول: "و عرفهم أشياخ الجزائر و أعيانها، أن الأشقياء الذين ببجاية عازمون على البعثة الموحدية، (...)، فضرب أخبيتها بخارجها فلما قرب الأسطول المبارك منها تقدم من الطلبة -وفقهم الله- الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق فخطب أهل البلد بما يبسط نفوسهم، و يمكن تأسيسهم، وعرفهم بالغرض الجميل فيهم، (...) فتأبى إليهم بصائرهم (...)، و خلصت في الإيمان و الإيقان طوياتهم، (...)، وناذبوا الأشقياء منابذة المبادئ المنافر و تبرأوا إلى الله تعالى من موالاة أمره الغادر"⁽²⁾.

فيصور انتصارات فرقته المسالمة دون خوض غمار الحرب و رضوخ أمته دون إعلاء رايات الحرب و انقلابهم على طاغية دبّ الرعب في نفوسهم فلم تكن مولاتهم له إلا رعبا و مخافة منه، و يستمر في إخبارهم بانسحاب المتمردين و رجوعه و هروب من معه، و فوزهم بهذه الخرجة النبيلة الميمونة إلى أن يهنئهم بفوزهم المحقق مبدئيا المسرة

(1) المصدر السابق: ص 189.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

بوقوع الطغاة و إنهمامهم مقدما إشادة كبيرة لفتح كل البلدان المدخولة التي كانت تحت قبضة الطغاة قائلا: "وبادر الغزاة -أعانهم الله- إلى البلد فدخلوه، و احتووا من بقي فيه من الكفرة و تملكوه، و سارعوا إلى الطلبة والموحدون أعزهم الله فألفوهم بحمد الله على أحسن أحوال السلامة، (...)، و عرفنا لكم -أكرمكم الله بهذه البشائر و الصنع الكريم الباهر و الفتح المتناصر، لتأخذوا من المسرة فيه بأوفى نصيب، و تفيضوا في شكر موليه سبحانه و تعالى، و توالوا حمده تعالى على ما أرى الأعداء من هول، (...)، فاستديموا النعمة في ذلك بشكرها"⁽¹⁾.

بالتالي فهذه الرسالة من أطول الرسائل التي كتبها أبو الفضل بن محشرة والتي وجهت لرصد الحركات الجهادية و الدعوة إليها و شحن الموحدين و تحفيزهم للمحافظة على دولتهم و التكثيف من مجهوداتهم لتحقيق التوسع و ضم بلدان أخرى و مدن إلى حكمها، كما أنها تشتمل على جزء صغير من التهئة بفوز الموحدين في بعض الفتوحات فكانت المواضيع الرئيسية لهذه الرسالة كالتالي:

- الحديث عن الحركات الجهادية الموحدية و ملابستها: كونها تضمنت الإعلام بأخبار بعض الغزوات الجهادية و الفتوحات وما إليها.
- الاستصراخ و طلب العون العسكري: فالخليفة قد استصرخ الطلبة و الموحدين و طلب دعمهم لإنجاز وعد المجاهدة لوقف زحف الطغاة و عبدتهم.
- إبداء السرور بتحقيق الوحدة الموحدية: فهو يهنئهم بفوزهم تارة و يبدي المسرة باتحادهم تارة أخرى وبالتالي بين لهم محبة من قبله اتجاههم.

3- بنية الخاتمة

كانت خاتمة هذه الرسالة عبارة عن وصية من الخليفة و تذكير منه، حيث أوصى الشيوخ و الطلبة والأكفاء والموحدين والأعيان على شكر الله ليتوفر النعم، كما كانت أمرا رسميا بالإخبار عن هذا النصر و الإقتداء بمثل هذه الأمور و الاستعداد لها، و البعث

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 191.

برسائل أخرى يعلنون فيها فحوى هذا الخطاب المرسل إليهم، لينتهي في حديثه بتحية الإسلام و يضمنها تاريخ كتابة هذه الرسالة قائلا: "واستشعروا حمد الله تعالى و شكره في إعلانكم و إسراركم، وخاطبوا بنسخها بواديكم و أقطارها، و مهدوا بالانقياد لأمر تعالى مهد استيطانكم في ظل أمانته و قراركم، و الله يوفقكم في ذلك إلا يقتضي نجاح إيرادكم وإصداركم، بمنه و كرمه و لا رب غيره، و السلام العميم عليكم و رحمة الله تعالى وبركاته، كتب في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة"⁽¹⁾.

تعقيب:

ظهرت هذه الرسالة بصفة كبيرة مدافعة عن ديار المسلمين والانتصار للإيمان فأكثر فيها البجائي من معاني الجهاد و ألفاظ المنجاة فكانت الأطول بين نظيراتها كما شهدنا تحديد البعض الجهات والمدن و الشخصيات على عكس سابقها.

(هـ) عرض الرسالة الخامسة: و هي الرسالة الثلاثون في كتاب لافي بروفنصال

1- بنية المقدمة

المُرسل إليه	المُرسل	كاتب الرسالة
الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بمراكش	حفيد بن أمير المؤمنين	أبو الفضل بن محشرة البجائي

مما يستقى من قراءة الجدول أن أسلوب -البجائي- لم يتغير إذ حدّد وجهة المرسل إليه و التي ظلت نفس الجهة التي كان يرسلها من خلال كل ما بعث به و التي مثلها: الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة مع تغير البلدان القاطنين فيها، و هذا يوحي بالمكانة العظيمة التي كانت تحتلها هذه الفئة العلمية على حساب الفئة العسكرية، فنلمس من هذا الأمر المستوى الثقافي و السلمي لدى الخليفة الموحي، و الملاحظ أيضا من مقدمة هذه

(1) المصدر السابق: ص 192.

الرسالة أنها ابتدأت بالديباجة المعهودة في الرسائل الماضية و احتوت كثيرا من الألفاظ والتعابير المشعرة بالشفاعة، ثم وقفت على وصف مغري لصفات شرفت بذات الرسول المعظم و إظهار عظمتة، و تبيان الثناء الصادق على الذات النبوية، وبيان نعوت المرسل الموقر لتلك الذات و تشوقه العارم له يقول: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين -يدهم الله بنصره، و أمدهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بمراكش أدام الله توفيقهم و كرامتهم بتقواه، (...)، سلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته"⁽¹⁾، فهو يكتب ترجمة على لسان حفيد الخليفة إلى متقفي مراكش، و ينتقل بعد ذلك للحديث عن النعم والدعاء لأمتة بلهجة صادقة ذاكرة بعد ديباجته التحميدية طابعا إخباريا عن فضل الرسول الكريم -صلى الله عليه و سلم- فوثق لأصالته و بين سمو مكانته وأفضالها على البشرية فيقول: "...و الحمد لله الذي صدق وعده، و نصر أوليائه و عبیده، (...)، و قرن بالتأييد و الظفر، و العون المصاحب و النصر المؤزر، عزائمه و قصوده و الصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبى، الذي أظهر الله برسالته الحنيفة تنزيهه وتوحيده، و عرف الكافة بنبوته العامة تقديسه و تمجيده، وبيعه يوم العرض الأكبر، شريف المقام و محموده، (...)، و وعده وعد الحق بلوغ ملك أمتة روابي المعمور المروي له ووهوده"⁽²⁾.

يظهر أن الباعث العاطفي التأثيري سببا أساسيا في كتابة مثل هذه الصفات فلم يبتعد عن تقديم انطباعاته الشخصية من خلال أفراد صفات النبي -صلى الله عليه و سلم-، ثم اتجه لإفراد صفات للخليفة و مجد دوره في استكمال الرسالة الإسلامية فتظهر مقدماتها مشبعة بالعاطفة الدينية يقول: "و الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي أقام الله بنوره منار الإسلام، و جعله محي شرعه القديم و معيده، (...)، و نهض بأمر الله باذلا في تمشية حده و بالغا في نصرته مجهوده حتى انتشرت في الآفاق كلمته، (...)،

(1) المصدر السابق: ص 192.

(2) المصدر نفسه: ص 193.

ويديم إعلاء أمره العزيز وصعوده ما اتصلت الأيام، و تعاقبت الشهور والأعوام، متراخي الزمن الأطول و مديده⁽¹⁾.

فهو يجسد ما اقتضاه مقام الخليفة و يؤكد على هذا المعنى الذي نوه فيه وحدة إسلامية علا فيها شأن الإيمان و التوحيد من خلال حرص أمير المؤمنين على مواصلة الدعوة للإسلام.

2- بنية المضمون

الظاهر أن هذه الرسالة انفردت بتمجيد الرسول-صلى الله عليه و سلم- و تعظيمه وهذا يفضينا إلى أنها تعبير عن قضية خاصة، تأكد على الأمن و الاستقرار الذي تحظى به بعض بلدان الدولة الموحدية مثل قابس و ينبه إلى أنها محط أنظار الأشقياء المتمردين و بعض الفارين و الخارجين عن قانون الدولة الموحدية فلم يكن اعتناؤه بهذا الحادث محض صدفة، وإنما أعطاه الأولوية على حساب غيره من القضايا المذكورة فيها، لذلك نجده في بداية الرسالة يشيد بأعمال الموحدين في قابس و يذكر غزوهم الظافر، و يشير إلى جهودهم المبذولة لإدامة فريضة الجهاد فيقول: "و نحن نشكره تعالى على ما منح من منن و مواهب، أعادت من الدين بهذه الأرجاء كل ذاهب، (...)، و استرجعت ما نهبته يد الناهب الغاصب، (...)، و أعلت الكلمة المهدية في سماء عزها الاسمية المراقب، (...)" وأظهرت أولياءها المؤيدين وأنصرها المكافحين عن الدين في مظاهر النصر والتمكين (...)، و عرفتهم في كافة مأخذهم عوارف اليسر الراهن والعون الراتب⁽²⁾.

فهو يثني على الموحدين بقابس ويشيدهم بالنصح والتوجيه الدعائي كما يأمرهم بأخذ الحيطة و الحذر قائلاً: "وإلى ذلكم -وفقكم الله و سددكم و أنجدكم، فقد علمتم ما كان من

(1) المصدر السابق: ص 194.

(2) المصدر نفسه: ص 195.

الأشقياء الغزيين، و إخوانهم في الضلالة من التحسب على أرجاء هذه الجهات الإفريقية و أكنافها وشنهم الغارات (...)، و إجماعهم على اكتساح زروعها، (...)»⁽¹⁾.

لكنه يشيرهم و يطمئنهم بفشل آمال هؤلاء الأشقياء غير أنهم لابد أن يكونوا على استعداد دائم فيقول: (...)، فحال بينهم و بين ما آملوه من ذلك المنع الإلهي والصد، والوصول إليها في ذلك الوقت الذي كيفه السعد، (...) و خلص الله تعالى في إعلاء كلمته و إطفاء متوقد شعلة الباطل و حيرته، (...)، و كان من صنع الله العجيب، أن انتهينا إليها عند بلوغ زرعها إلى حال الكمال و الطيب، فحماء الله من اختطافهم، (...)، و صيره رزقا واسعا لأحزابه المؤيدين، (...)، و كانت خيبة الأشقياء منه سببا لتشتتهم، و صاروا إلى جوع أشقوا به على تلفهم و إنجعافهم»⁽²⁾.

فهو يسهب في إخبارهم عن مجريات أحداث بعض الأطماع التي حاول المتمردون القيام بها فيتحدث عن جانب فلاحي و هو محاولة اكتساح الزرع الذي ينتج في هذه المناطق الطيبة و يصف حالتهم بعد فشلهم في نيل مرادهم، ليعود لوصف حركات الجهاد التي قام بها الموحدين منطلقين من تونس متصددين لهؤلاء الجبناء في عقر ديارهم و يصف مطولا مهمتهم هذه لدرجة المبالغة فلا يترك صغيرة و لا كبيرة إلا و ذكرها، فيصف كيفية الدخول والطريقة المتبعة ويرصد مظاهر المقاومة من قبل المتمردين و كيفية فرارهم، و يذكر المناطق التي لجأوا إليها و كيف قوبلوا بالرفض و الطرد، فينبههم إلى أن بلدهم -قابس- هو الملجأ الأخير أمامهم و يأمرهم بغلق أبوابها أمامهم إن كانوا متقبلين لانخراطهم في ظل هذه الدولة المؤمنية الإسلامية بطريقة مسالمة، و عدم الخوف من الطغاة الموجودين بها، فنجده أطل الحديث في ذلك يقول: (...)، عزم الموحدون -عزهم الله- على النهوض إليهم، (...)، و غزوه في عقر ديارهم، (...)، فنهضوا من تونس، وأعلامهم بالفتح و التأييد خافقة، (...)، فتوحد الاتكال على الله وحده، (...)

(1) المصدر السابق: ص 196.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

فحقق الله تعالى الظنون، (...)، و لما أحسّ الأشقياء بحركتهم، و أن أخذة الله أُنْتَهَم من ورائهم، تحركوا من مواضعهم منجّرين بجبل غرورهم (...)، و لما وصل الموحدون إلى القيروان، رأوا أن يقدموا الإنذار إليهم، و يقيموا الحجة عليهم، و يسلكوا على سنن الشرع في تقريره الدعوة إلى الله تعالى و إلى رسوله و بما جاء به لديهم⁽¹⁾.

فالبجائي يذكر على لسان الخليفة مجريات هذه الفتوحات التي يقوم بها الموحدون يحدوا من عزيمة الطغاة قبل أن يتناولوا عليهم، و يقر بأنهم يعتمدون على الجانب السلمي أكثر من غيره، ليواصل حديثه قائلاً: "... و استمر الموحدين -أعزهم الله- مسيرهم المبارك في اتباعهم على مقربة من الحمة المذكورة، فضربوا أبنيتهم، (...) وساروا إلى عدوهم و التوفيق يسعدهم، (...)، و أعداء الله قد أطغاهم الإنجرار، (...) فلاندوا بالفرار، (...)، فاتبعهم أولياء الله يقتلونهم، (...)، فلم تبق هذه الحركة منهم بحول الله إلا كل منحوب الفؤاد حسير"⁽²⁾.

و في هذا الكلام إبلاغ بفوز الموحدين على الطغاة و نيل مكسبهم الجهادي العظيم، ثم يذكر لهم الطغاة المقيمين بقابس و يحذرهم منهم و يخبرهم بالمطالبة بهم خاصة وأن مدينتهم من أهم البلدان فيسترسل في ذكر مظاهرها و رونقها و جمالها و هذا ما يدعو بالضرورة للاهتمام بها، لذلك فهو يزف لهم خبر الفوز المحقق و النصر المبهج قائلاً: "وعرفناكم -وفقكم الله- بهذا السرور المتتابع، و الفت الناظم لأسباب الخير الجامع، والظفر المروي لغلل النفوس الناقع، لتأخذوا من الحظ فيه بأوفر نصيب"⁽³⁾.

فهو يشاركوهم الفرح و المسرة لهذا النصر الجليل العظيم، والملاحظ على هذه الرسالة الطول المسهب والاهتمام بموضوع الفتوحات يتخللها النصح و الإرشاد، و الدعوة

(1) المصدر السابق: ص ص 196-197-198.

(2) المصدر نفسه: ص ص 199-200.

(3) المصدر نفسه: ص 203.

إلى نصر الدولة الموحدية بالإضافة إلى التهئة في مرات قليلة لذلك كان موضوعها الأبرز:

- الإعلام بأخبار الغزوات والفتوحات: كونه تحدث عن الحركات الجهادية ودقق في تفاصيل خاضها الموحدون وأظهر انكسار الأعداء، كما كان في هذه الرسالة نوع من التحفيز للحفاظ على البلدان الأصلية للمرء.

3- بنية الخاتمة

تحدث فيها البجائي عن استقبال هذه النعم و شكرها والحرص على تعليمها ونشرها وإشاعتها وختم الخليفة الأمر بدعاء لهم يزيدهم خيرا ونورا و ذيلها بتاريخ كتابتها يقول: "فاستقبلوا وفقكم الله هذه النعم بواجب شكرها، و وفوها حق بثها ونشرها، وأفهموا أرجاءكم ونواحيكم بريها العبق و نثرها و أجيلوا في نواحيكم و محاضركم، قداح التحدث بها و ذكرها، إن شاء الله تعالى، و الرب سبحانه يجعلكم من الشاكرين لنعمه، المتحدثين بآلائه وقسمه، المستعدين بحمده سبحانه عوارف جوده وكرمه، بمنه و فضله، لا رب غيره، والسلام الكريم عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته، نفذ من نفاوة -كلأها الله- في الثامن عشر من شعبان المكرم سنة ثلاث و ثمانين وخمسائة"⁽¹⁾.

تعقيب:

أشارت هذه الرسالة إلى موضوع كتابتها بوضوح، وكانت من أطول الرسائل البجائية، تميزت بألفاظ لغوية دينية و قدرة تصويرية إبداعية كبيرة.

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 203.

و) عرض الرسالة السادسة:

و هي الرسالة الواحدة و الثلاثون التي خطها البجائي

1- بنية المقدمة

كاتب الرسالة	المرسل	المرسل إليه
أبو الفضل بن محشرة البجائي	أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين	الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بتونس

تمثال مقدمة هذه الرسالة مقدمات الرسائل السابقة، فنجد^(*) يردف اسم المرسل والمرسل إليه، و يبدع في كتابة طالعته، دون أن يسهب في تقديمها، حامدا الله على نعمة الفتوحات المحققة و شاكرا كل من امتثل لتهيئة هذه الدعوة مبديا سروره لهذا الأمر، وهو ما جعله شيء يثني على الشخصيات المبعوث لها، مصليا على الرسول الكريم، مادحا الخليفة و ما يقوم به لإحياء هذه الدعوة السامية نحو: "من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، (...)، إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والكافة بتونس، (...) و أعانهم على شكر ما منحه من فضله، (...)، وتابع لهم المسرات بترادف فتوح هذا الأمر العزيز، (...)، أما بعد فإننا نحمد إليكم الله لا الذي لا إله إلا هو، و نشكره على آلائه و نعمه، و نصلي على سيدنا محمد نبيه المصطفى و رسوله، و الحمد لله الذي و اتر لهذه الدعوة العلية فتوحه السنوية"⁽¹⁾، و شرع بعدئذ في بيان ما كان لهذه الدعوة من عطايا محققة و من نصر و غياب للباطل والشهادة لكل من ساهم و وقف عند قيام هذا الأمر.

(*) الهاء الموجودة في النص تعود على البجائي.

(1) المصدر السابق: ص ص 203-204.

الملاحظ على هذه المقدمة أنها كانت قصيرة على عكس ما ألفناه في الرسائل الماضية إلا أنها حازت على عناصر تمكنا من القول عنها، أنها مقدمة تامة وصدر غير مبتور نحو: التحميد و السلام و أما بعد.

2- بنية المضمون

وجهت هذه الرسالة على ما يبدو لتهنئ شيوخ وطلبة تونس بأخبار الانتصارات الموحدية ليشير فيها الكاتب إلى فضل الله عز وجل في تحقيق هذا النصر و أن التمسك بالله عز وجل هو مفتاح الفلاح في الدنيا، يقول: "وهذا كتابنا إليكم -عرفكم الله من فتوح الأمر العزيز ونشره، (...)، و يوزعكم شكرا يؤدي حقوق ما أولاكم من خصائص الاستناد إلى طائفته المنصورة، (...)، و أن توقنوا بأن الله تعالى في طي محاولات هذا الأمر العزيز أسراراً يحص بها عبادته، و يحقق رجاء من أخلص نيته في التوكل عليه"⁽¹⁾، ثم يمهد الكاتب لأسباب هذه الحركة تمهيدا واسعا حسنا تمثل في ذكر مساوئ المرتدين على الإسلام و عاداته قائلا: "و كانت -وفقكم الله- هذه الحركة المباركة مبنية على التجرد فيها لقمع المعتدين، و قمع العابثين و المفسدين"⁽²⁾، ثم يتابع الحديث عن الموضوع فيرسل حقيقة نصره الدين الإسلامي والتوسع المنشود لبلاد الموحدين ذاكرا أهم المناطق التي أقيمت بها حركات الفتوح، مشيرا إلى أهبة هؤلاء الجيوش وقادتهم وهو أمر يتمنى أن يمثل له شيوخ و طلبة تونس قائلا: "(...)"، و قضى بأمره على أيدي أوليائه المؤيدين و غلابهم، (...)"، و أراح هذه الأصقاع من إصاباتهم الخبيثة، (...)"، نهض الموحدون من قابس آخذين على صحرائها وقاصدين البلاد الجريدية من ورائها على طرق لا عهد لها بالعساكر، (...)"⁽³⁾، ثم يقف على وصف مواطن الديار و ذكر مشاهد الفتوحات التي طالتها بعد وصول الموحدين إليها مظهرا الجهاد و التصدي لسكان هذه

(1) المصدر السابق: ص 206.

(2) المصدر نفسه: ص 207

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

المناطق متحدثة عن طابعها الجغرافي و واصفا كل ما وجد بها من مناظر و طبائع وعادات إلى أن يصل لمناشدة التونسيين الدعم الروحي لاسترجاع قفصه -و التي حدثهم عنها بوجود متمردين و طغاة قائمون على إحلال الفساد بها وباعثين كل ما حرم فيها وهي موضوعه الرئيسي في هذه الرسالة يقول: "واستمر بالموحدين -أعزهم الله- سيرهم المبارك من توزر إلى قفصة -أعادها الله-، فألفوا بها جملة زميمة من أشقياء الأغزاز وأتباعهم، (...)، فأظهروا ما عندهم من الامتناع، واستشعروا شعار المصارمة والدفاع، و اغتروا، (...)، و هيهات أن تعزوا هذا الأمر العزيز"⁽¹⁾، ثم نجده يصرح بعدها بامتنال أهالي قفصة لأوامر الخليفة وإعلان الولاء للدولة الموحدية و فتحها بالاعتماد على الطرق المسالمة و هو أمر كان مرجو قد تحقق قائلا: "..."، و في يوم الحلول به وصل خطاب قراقوش و أرسله راغبا في التوحيد خاضعا"⁽²⁾، إلى أن يصل لحمد الله على تحقق هذا النصر العظيم ذاكرة و مؤكدا على فتح هذه البلاد نحو: "وصارت والحمد لله هذه البلاد كلها معهودها من الطاعة"⁽³⁾.

بالتالي فإن موضوع الرسالة هو واحد لا غير كونه تجسد في: الإخبار بالفتوحات وطلب الدعم الروحي لتحقيقها.

3- بنية الخاتمة

خلصت هذه الرسالة إلى الشكر على المساهمة في توسيع البقاع الموحدية وذكر نعمة الله عز وجل و أفراد السلام و ذكر تاريخ الكتابة نحو: "كتب في الثاني من شهر رمضان ثلاث و ثمانين و خمسمائة"⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق: ص 209.

(2) المصدر نفسه: ص 210.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه: ص 211.

ز) عرض الرسالتين السابعة و الثامنة:

و هما الرسالتين الثانية و الثلاثون و الثالثة و الثلاثون من كتاب رسائل موحدية

1- بنية المقدمة

كاتب الرسالة	المرسل	المرسل إليه
أبو الفضل بن محشرة البجائي	أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين	الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان و الكافة بمراكش

الملاحظ على هاتين الرسالتين نفس التقديم و نفس الطوالع، كونه يحدد المرسل والمرسل إليه، و مكان إقامة المرسل إليه و هي نفس الوجهة في الرسالتين، حيث نجد الكاتب يستهل بالدعاء لحضرة العلماء و الطلبة و يضمنها الصلاة و الحمدلة، كما يفرد صفات تحلى بها النبي الكريم -صلى الله عليه و سلم- لينتقل لذكر و مدح الخليفة وتصنيف معالي أخلاقه المستحبة و هو أمر عودتنا عليه الرسائل المدروسة سابقا وبالتالي بقاء نفس الخصائص المعتمدة في بنية مقدمات الرسائل السابقة، و في هذا الأمر فليُنظر الصفحات 213 و 221 من كتاب لافي بروفنصال المستهلك في بحثنا.

2- بنية المضمون

القضية المطروحة هنا هي وجود رسالتين تحملان نفس المضمون -الموضوع- وهذه الازدواجية قد تكون راجعة إلى أهمية الأمر الذي وثق له الجهاد و هو تحقق الفوز والانتصارات من خلال الفتوحات التي كان يقوم بها الموحدون لتوسيع رقعتهم، و نلاحظ أنهما من الرسائل الطويلة المتعلقة بأخبار النصر في المعارك و الدعوة للالتحاق بصف الدولة المؤمنية بطريقة سلمية، فالرسالة الثانية والثلاثون تتميز بكونها رسالة تهنئة على الفتوحات المحققة لبلدان سبق للموحدين محاولة دخولها، يقول: "و هذا كتابنا إليكم - سمعكم الله- من تواتر البشائر، و تقاطر فتوح هذا الأمر الظاهر الظافر، ما تستغرق

بالمسرة به أوقاتكم⁽¹⁾، ثم يوصيهم بتقوى الله و طاعته حتى يصلح أمرهم و حياتهم لينتقل لذكر قضيته الحقيقية من وراء كتابة هذه الرسالة مستعملا كلمة -فقد تقدمت مخاطبتنا إليكم- وذلك لرفع الروح المعنوية من أجل خوض تجربة الفوز والإحساس بطعم الانتصار، لكنه لا يغفل عن ذكر الصعوبات والعوائق التي تواجههم جراء محاولة كل فتح، ثم نجده يشير إلى الأخبار بالطرق المعتمدة في الحرب و ذكر الآلات المعتمدة فيها وهنا نلمس تصويرا حربيا دقيقا، كما نلمس اختلافا في طرق الجهاد الموحدية بعدما كانت سلمية في مرات عديدة تم ذكرها فيقول: "(...)، و رأينا أن محاربتهم بالآلات المتخذة أبلغ في نكايتهم و إذلالهم و أسرع في إبادتهم بعون الله، (...)، و شرع في إقامة الآلات على اختلاف ضروبها و أشكالها، (...)، فنصبت إليهم مجانيق (...)، و تصيبهم منها صواعق لا تستطيع نفوسهم المروبة و قلوبهم المنحوبة، صبرا على إجمال بلائها المهلك و لا تطبيق⁽²⁾، وهو يقصد بكلامه هذا المتمردين الرافضين للدولة الموحدية ليسهب في تصوير الخراب و الدمار الذي خلفته هذه الآلات بالرغم من حصون و قلاع هذه المدينة -قفصة- ذاكرا مراحل دخول الموحدين خطوة بخطوة و هو تحقيق لفوزهم و انتصارهم المنشود إلى أن يصل لإخبار الطلبة و من معهم بسقوط هذه الدول في أيدي الموحدين و توحيدها تحت رايتها بالرغم من اعتقاد أهاليها بأن حصونها و قلاعها ستكون حامية لها و درعا يحتمون فيه، إلا أن قوة الموحدين فاقت معتقداتهم فيقول: "و بتملكها تمت هذه الحركة المباركة تماما على الذي أحسن و ظهر عظيم صنع الله فيه لأولائه المؤيدين، و لم يبق في هذه الجهات كلها من الأغزاز من ينفخ للفتنة، (...)، إذ أذهبت هذه الغزوة المباركة يوم الفتح الأعظم، و تملك بقباس و قفصة، (...)، و تبين برهان الحق الباهر"⁽³⁾.

(1) المصدر السابق: ص 214.

(2) المصدر نفسه: ص ص 215-216.

(3) المصدر نفسه: ص 221.

إذا فإن مضمون الرسالة يتلخص في الإخبار بالفتوحات المحققة و هو نفس مضمون الرسالة الثالثة والثلاثون كونها تزف أخبار الانتصارات إبان غزوة الموحيدين وتكافلهم وتحقق وحدتهم و هو ما رأى الخليفة ضرورة الإخبار به قائلاً: "و إنا كتابنا إليكم، (...) انتظامكم واجتماعكم من منزل أبي سعيد، ونحن نحمد الله تعالى على ما يسر من محاولات هذه الغزوة السعيدة، (...)، وكانت هذه الحركة السعيدة التي آلت بها أمور هذه الأرجاء خير مآلها"⁽¹⁾، فهو يشكر الله و يحمد على هذه النعمة الطيبة، ثم ينتقل لتصوير الحالة التي كانت عليها البلاد قبل تحقيق الانتصار و الفوز و ذكر الجهود التي قامت بها هذه الطائفة الميمونة ذاكرا صفات هؤلاء المجاهدين الجالبيين للفوز العظيم، مشيراً إلى أحداث سابقة في الرسالة الثانية والثلاثون فهذه الرسالة هي تكملة لسابقتها، ليطيل البجائي الحديث عن مراحل الفتوحات من مدينة إلى أخرى مفرداً فنون القتال وآلاتها، ذاكراً أساليب القتال المتبعة عند الموحيدين و طرق المماثلة من طرف العدو قبل الاصطدام في المعارك، معلماً بدواعي الحركة الجهادية وقد امتد هذا الأمر من الصفحة 226 إلى 228، و ثم يذكر بعضاً من الدول المساندة لهم في هذا الأمر، لذلك فهو يعلمهم بقدمهم ويطلب منهم الاستعداد لاستقبالهم و مساندتهم قائلاً: "فاستبشروا -أعزكم الله بقدم إخوانكم الموحيدين، و اشكروا الله تعالى على ما ذخّر لهم من نصرة الدين، و حمدوه سبحانه على إعلاء كلمته، (...)، و الحمد لله من أجر هذه الغزوة السعيدة"⁽²⁾.

وبالتالي فكلتا الرسالتين تكملة لبعضها البعض ذلك أنها دعوة وتهنئة في نفس الوقت و ذكر لأخبار الفتوحات والانتصارات المحققة، كما أنهما رسالتين للسلم والأمان لمن لبس عباءة الدولة المؤمنية و بذلك يتلخص موضوعهما كالتالي:

- التهنئة على الفتوحات و التوسعات الموحدية: ذلك أن هناك ذكر مطول لتفاصيل الحروب و تصوير للأحاسيس القوية المصورة لهذه الانتصارات.

(1) المصدر السابق: ص 245.

(2) المصدر نفس: ص 249.

3- بنية الخاتمة

لقد شهدت خاتمة الرسالتين بقاءً للطريقة التي عهدتها الرسائل السابقة، حيث حازت على ألفاظ راقية و لغة سلسلة مبسطة مع تضمينها لتاريخ الكتابة و مكان صدورها و إن كان غرض الرسالة الثانية والثلاثون هو عرض لنتائج الفتوحات أما الثالثة والثلاثون فقد كانت دعاء و وصايا و نصح و إرشاد، فكانت نهايتها تعليمية بحتة، و هي أمر مخالف من حيث الغرض، فالرسائل الأولى كانت إما تنتهي لأمر من الخليفة أو تحذير على عكس هاتين و كان تاريخ الرسالة الأولى في:

"كتب في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة"⁽¹⁾.

أما الرسالة الثانية فكتبت في:

"كتب في العاشر من شهر ربيع الأول سنة أربعة و ثمانين و خمسمائة"⁽²⁾.

الملاحظ على الرسالتين أنهما لم تكونا بطول الرسائل السابقة، و أن هناك تشابه كبير و تداخل ملحوظ من حيث توظيف الأفكار حتى إنهما حملا نفس الموضوع و كانتا تكملة لبعضهما البعض و من الخاتمة نشهد أن فارق الزمن بينهما هو عام كتابة مع الإبقاء على العناصر الخاتمة المتفق عليها.

ح) عرض الرسالة التاسعة: و هي آخر ما كتب البجائي من الرسائل في عهد الأمير يعقوب المنصور

1- بنية المقدمة

المرسل إليه	المرسل	كاتب الرسالة
الطلبة والموحدين والأعيان والأشياخ والكافة بسببته	أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين	أبو الفضل بن محشرة البجائي

(1) المصدر السابق: ص 222.

(2) المصدر نفسه: ص 230.

يظهر من الجدول أن بنية المقدمة في رسائل البجائي لم تتغير على طول الرسائل وظلت تحمل نفس الطابع خاصة في استعمال كلمات مفتاحية للانتقال بين ثنايا الرسالة مثل كلمة -أما بعد- و توظيف المصطلحات الدينية الإسلامية المتعارف عليها نحو: سلام عليكم و رحمة الله، أدام اله كرامتكم و تقواه، و إظهار الشكر على النعم والسلام الذي يعم البلاد دون أن يغفل على الصلاة والحمدلة قائلا: "أما بعد فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو و نشكره على نعمه ونصلي على محمد نبيه المصطفى و رسوله"⁽¹⁾، ثم يستمر في ذكر فضل الرسول على الأمة بصفة عامة و الدولة الموحدية بصفة خاصة، مع ذكر محاسن الخليفة وما قام به من أعمال تسعد على ارتقاء الدولة والنهوض بها فيقول: "والصلاة على محمد نبيه المصطفى، (...)، المختار من أشرف المحاتد وأطيب المغارس، المسكت بفرقانه المعجز، (...)، و الماحي بنور نبوءته الخاتمة للمل، (...)، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي أحيا الله به مراسم الإسلام كل دارس، وأبان بظهوره معالم الإيمان (...)"⁽²⁾.

فلم تكن مقدمة هذه الرسالة مسهبة الطول ولا معقد الفهم والألفاظ وإنما كانت بطريقة سهلة مع الحفاظ على أساليب المقدمات الرسائية فلم تكون مبتورة واقتصر المفهوم فيها على توضيح معالم المرسل والمرسل إليه مع تعظيم مكانة النبي و الخليفة وابنيه ورصد فضلهم على الأمة الموحدية.

2- بنية المضمون

يخلص البجائي للدخول في موضوع الرسالة بلفظة تعودنا عليها في رسائله هي - وإنا كتبناه إليكم- و يلحقها بذكر المدينة المراد الحديث عنها هي -أشبيلية- داعيا إياهم للاقتداء بمن سبقهم من أعيان وولاة انضموا إلى الدولة الموحدية واتخذوها مكان قرارهم، حتى يكون لهم الأمن والاستقرار و ينعموا بالهدوء والسكينة وذلك باتباعهم لهذه

(1) المصدر السابق: ص 230.

(2) المصدر نفسه: ص 231.

الحركة التي تشهدها الدولة المؤمنية فما هو مطلوب منهم واضح وذلك بتحقيقه لطلبه الذي يتمثل في القيام بحركة جهادية لطمس معالم الكفر بهذه الدولة، و ذلك بتأييده وتأييد أنصاره قائلا: "و إنا كتبنا إليكم -أسمعكم الله من بشر هذا الأمر العزيز ما يفعم أرجاء طبيه، (...)، من حضرة إشبيلية - والذي نوصيكم به تقوى الله، (...)، و ينتهج السعداء الموفقون مناهجها اللاحبة و سبلها و يتحقق الصادقون الموقنون أن الخير التامة، (...) لا تعدو مجملها ومفصلها، (...)، و كنا وفقكم الله، عزمنا في هذه الحركة السعيدة على غزو الكافر، (...)، و إفناءه، و استتجاز وعد الكريم في إظهار حزبه و تأييد أوليائه"(1).

ثم يذكر لهم بعض القبائل والدول المساندة لهم في هذا الأمر والتي امتثلت لأوامر الدعوة، فيصف لهم ما لهذه المبادرة من جزاء و فضل على أنفس المسلمين ثم يحيطهم علما بأنه لا يطلب منهم هذا التكاثف من أجل العدد فهو يؤمن بقدرة الله وعظمته وإعانتة لهم وأن كل فوز بفضلهم وأن طلبه هذا لا يعني ضعف دولته أو عدم اقتناعه بقوة من أنظم إليه من مساندين وإنما لرغبته مشاركتهم الحسنات والفوز بالثواب لينتقل بعدها لتصوير حالة الكفرة ويقصد بهم هنا -النصارى- و ما آلت نفوسهم قائلا: "(...)", فكان مما أظهر الله تعالى في مبادئ هذه الحركة الميمونة، وعرفه من محاولاتها المسيرة وفتوحها المضمونة، أن قذف في قلوب الكفرة رعبها، وأعمل فيهم والعوامل لم تسدد، والصوارم لم تجرد، فطارت نفوسهم، و نحتت أفئدتهم ارتياعا، وصاروا بحمد الله فرقا مشتتة، (...) فلاذوا بالخضوع، (...) "(2).

ثم يعود ناقلًا إليهم خبر لخضوع ملك قشتالة معلنا ولاءه للدولة الموحدية ورافضا لمن وقف في وجهها من أبناء أمتة محاربا إياهم، و هذا ما مكن الموحدين من الانطلاق صوب هذه المدينة العريقة، لينتقل بعد ذلك خبر دخول دول أخرى تحت الراية الموحدية فيسهب في وصف طريقة البعثة وكيفية جهادهم فيذكر الأماكن مثل: قرطبة، وادي تاجوا

(1) المصدر السابق: ص 232.

(2) المصدر نفسه: ص 233.

و مزرعة شترين، و هذا يؤكد على وجود علاقات اقتصادية متبادلة بين تلك الدول ليذكر طريقة المقاومة التي اعتمد فيها العدو وعلى حصونه وقلاعته التي كانوا يظنون أنها ستحميهم من كل شر و اعتداء وهو عكس ما حدث، حيث وصف سوء العاقبة التي ألحقها بهم الموحدين و صور أثار الدمار خلفوه و أصاب هؤلاء المرتدين و ذكر ما غنمت به هذه الدول و ما أحلت على نفسها من غنائم، ليسهب بعدها في تصوير الفتوحات الأخرى و تحقيقهم للانتصارات المتوالية على كل بقعة يحيطون ترحالهم فيها، كما يعلمهم بالخيرات التي حازوا عليها جراء هذه الفتوحات العظيمة قائلًا: "(...)، بما نالوا من خيرات عميمة، و أحرزوا من أجور غنيمة، و حازوا من منالات جمّة، فإن حركتهم السعيدة أشرفت ابن الريق بريقه، (...)، شاكرين الله تعالى على ما نول من نعمه الجمّة"⁽¹⁾.

لذلك فإن هذه الرسالة قد شهدت موضوعا واحدا أسهب البجائي في طرحه و هو الدعوة للانضمام للفتوحات التي يقوم بها الموحدون و ذكر للطريقة التي فتحت بها بعض المناطق، مع ذكر أسامي الأماكن و هو أمر لم يعهد لنا أن رأيناه في الرسائل السابقة إلا في الرسالتين (32)، (33)، فكان مضمونها ثابت لا تداخل في قضاياها مثلما سبق لنا التحليل في الرسائل الماضية، لذلك يمكن حصر موضوع هذه الرسالة الأخيرة في:

- الإخبار بغزوات الدولة و الحركات الجهادية.
- الدعوة للمشاركة في تحقيق توسيع إطار الدولة.

3- بنية الخاتمة

كانت عبارة عن نصيحة للابتعاد عن الغرور والاعتداء بالنفس، والحمد والشكر لله على ما أفاضه من خير على هذه الدولة و نشر مثل هذه الأمور والعمل على إعلاء مكانتها في المجتمع، وترغيبها في نفوس السكان للأخذ بها، والدعاء للأمة بالفلاح

⁽¹⁾ المصدر السابق: ص 239.

والصلاح، كما ختمها بإلقاء السلام و ذيل لها بذكر تاريخ كتابتها نحو: "(...)، كتب في السادس و العشرين من جمادى الأخرى سنة ست و ثمانين و خمسمائة"⁽¹⁾.

من خلال ما سبق نلاحظ أن الرسائل التسع تميزت بالطول المسهب في أغلبها وتعددت مضامين الرسالة الواحدة، إذ نجد أن الغرض من كل رسالة يتجاوز قضية أو قضيتين، كما تميزت بالألفاظ الراقية واللغة الصعبة المسجوعة وحفلت بلغة دينية إسلامية فوظف في بعض الرسائل آيات قرآنية و أحيانا أحاديث نبوية، والملاحظ أن كل الرسائل قد عرف كاتبها والجهة المرسل إليها وتاريخ كتابتها دون استثناء، أي أنها رسائل لم تكن مبتورة الصدر و لا الخاتمة و حازت على كل قواعد كتابة فن الرسالة المستقل.

2. أنواع الرسائل:

لقد جاء الخطاب الديواني الذي تأنق -أبو الفضل بن محشرة- في تحريره مؤكدا حبه لسلطين الخلافة الموحدية، و ناظرا إليهم على أنهم المنقذون الحقيقيون لهذه الدولة، لذلك تميزت رسائله التسع التي خطها بأمر من الخليفة بالتنوع والتمايز بين رسالة ديوانية، و أخرى إخوانية أو رسالة مزاجية، و يرجع هذا التنوع إلى عدم تقيده بإفراد موضوع واحد في الرسالة الواحدة، وإنما إتباعه لنمط التعدد في المواضيع في الرسالة الواحدة و هذا ما أظهره تحليلنا لهذه الرسائل.

أ) الرسائل الديوانية:

إن أغلب ما طبعت به هذه الرسائل هو اللون الديواني و ذلك بسبب العلائق أو علاقته التي ربطته مع الكبار من العلماء و الأئمة و النظراء، فيكفي أنه الكاتب المعتمد لدى الخليفة و أبنائه، و هي من أهم الشروط المساهمة في تحقيق رسالة ديوانية، كما أنها رسائل صدرت من ديوان الخليفة إلى من يماثلون من حيث المعرفة والثقافة نحو قوله:

⁽¹⁾ المصدر السابق: الصفحة نفسها.

"من أمير المؤمنين (...)، أيده الله (...)"، إلى الطلبة والشيوخ والموحدين والأعيان⁽¹⁾، كما أنها تميزت بالعناية الزائدة و التهويل في مواضيعها وهو ما كان الخليفة يأمر بكتابته في قضايا الجهاد والاعتصام بحبل الله، فقد كَوَّن هذا النوع فضاءً فسيحاً بدءاً من أولى رسائله التي كتبها الرسالة 26- إلى آخر رسالة خطَّ قلمه بها -الرسالة 34- فيظهر هذا النوع بارزاً من طوابع الرسائل إذ تظهر سماته المتفق عليها وهي من أودعه البجائي ضمنها مثل:

- تعظيم ذات المرسل إليه والذي مثله الطلبة والشيوخ وغيرهم إذ نجد البجائي أظهر لهم مدى أهميتهم و قيمتهم.
- إظهار الولاء والطاعة للدولة.
- بيان اليوم والمكان الذي كتبت و أرسله منه الرسالة وهو أمر سبق لنا ذكره في مميزات الرسائل الديوانية في الفصل الأول.

بالتالي يمكن القول أن اللون الديواني قد طغى على الرسائل البجائية بصفة عامة، إلا أن هذا لا يعني غياب الأنواع الأخرى فهذه الرسائل كانت لها بصمة من حيث النوع الوجداني والمزاوجة.

ب) الرسائل الوجدانية:

بعد تحليل البنى الداخلية لهاته الرسائل، فإننا نستشف أن رسائله تدل على جنوح الكاتب فيها غالباً إلى إطراح الكثير من التكلف، و اعتماد صور التودد والمناجاة كالدعاء للطلبة، ومدح الخليفة والمفاخرة به والمشاركة في الأحاسيس والمشاعر، كإحساسه بغربة المجاهدين الساهرين على تحقيق التوسع والانتصارات للدولة، و ضمها لبعض الأغراض الاجتماعية كالدعوة للصالح و إتباع راية الإسلام والحرص على إعلانها، بالإضافة إلى أنها كانت تكتب لنظرء من دولته وما تضمنته من ألفاظ تتسم بالتأنق وحرارة العاطفة خاصة للخليفة، وهي من أبرز الخصائص التي تحتويها الرسائل الإخوانية أو الوجدانية

(1) المصدر السابق: ص 173.

لذلك فهي لون زينت به الرسائل ككل من واحد إلى تسعة، كون هذه الرسائل لم تخلو من إظهار في أمور مختلفة.

ج) رسائل المزاجية:

نشير إلى هناك رسالتين تتدرجان ضمن رسائل المزاجية، حيث وقفنا من هذا النوع على رسالته الثامنة والعشرون و التاسعة والعشرون التي بعث بها إلى المرؤوسين من موحدين و طلبة وغيرهم من أجل قضية خاصة في نظره متعلقة بصالح الدولة العامة وهو توصيتهم و تحذير بالعودة إلى طريق الصواب والفلاح وجمع لشتات الأمة وتحقيق وصالها، غير أننا لا نجد هذا النوع من الرسائل يظهر بصفة مباشرة في رسائله و إنما التعدد في المواضيع المطروحة في الرسالة الواحدة مكننا من معرفة هذا اللون بالإضافة إلى أنه خطاب من الأعلى الذي يمثل الخليفة إلى الأدنى وهم الطلبة والشيوخ و كل جهاته المرسلة إليهم رسائله.

إذن فرسائل -أبو الفضل بن محشرة- هي رسائل ديوانية بحثة لما حازته من سمات هذا النوع و غلبتها على حساب غيرها من الأنواع.

3. خصائص ومميزات الرسائل البجائية الموحدية:

على إثر تحليلنا للرسائل التسع نستشف أن رسائل البجائي قد تميزت بخصائص فنية ظهرت على طولها يمكن إدراجها كالتالي:

- الطول في ابتدائها و استعمال كلمات مفتاحية للانتقال للموضوع نحو هذا كتابنا إليكم بدل أما بعد، و هي أمر يميز فن الرسالة.
- حمل إشارات لصفة الخليفة المكتوب عنه بدل ذكر اسمه نحو الإمام المعصوم^(*) و إن كان في بدايات رسائله قد أشار إلى أنه الأمير يعقوب المنصور.

^(*) ذكر هذا الأمر في كتاب أحمد عزاوي بعنوان: رسائل موحدية مجموعة جديدة، الجزء الثاني، الصفحة 38 و 39.

- اقتصار اسم الخليفة على -عبد المؤمن- تشبيهه له بالخلفاء الراشدين و نعت من جاء من بعده بأمرير المؤمنين أو إمام أمير المؤمنين، و هو ما ذكر في كل رسائله.
- بعد ذكر المدن الموحدية تتبع بالدعاء و يكون دعاء تميز مثل حرسها كلاها(*)
الله و أحاطها الله إذا كانت لا تزال لم يعتنق أهلها الإسلام.
- لا يذكر اسم المكتوب إليه إذا كان أقل مكانة من الخليفة مثل الطلبة، الشيوخ، العلماء...
- ذكر تاريخ صدور الرسائل ومضمونها ومكان صدورها والجهات الموجهة إليها، كما تميزت بلمسة دينية إسلامية هادفة.

(*) ينظر نفس الكتاب: ص 38.

المبحث الثالث: صورة الآخر في رسائل البجائي

لقد استطاع المؤلف أن يقدم صوراً متعددة الأوجه عن الآخر، وشخصيته في الحقبة التي عاشها، فرسم له اختلافات كثيرة وأظهر امتداد هذه الصورة في وعي الفرد والجماعة، كما أنه قدمه وفق طريقته الخاصة في لون متميز و مبدع فكانت رسائله تأنس لتفاصيل كثيرة عن حياة الآخر، و لربما أن هذه الدقة في تقصي أخبار الآخر راجعة إلى اتساع دائرة العلاقات الشخصية لدى أبو الفضل مع سلاطين و حكام دولته واتصاله مع المثقفين من أئداده، والملاحظ بعد دراسة رسائله أن الصور التي ضمنت فيها قد انحصرت في صورتين واضحتين هما: صورة الآخر الإيجابية و صور الآخر السلبية لتتفرع عنها صور جزئية كثيرة، فغلبة هذه الصور راجعة إلى طبيعة الرسائل ومواضيعها وإلى الجهات المرسل إليها التي مثلتها أعيان مؤيدة لحكم الخلافة الموحدية أو شوارد رفضت الامتثال لهذا الحكم.

و من هنا نجد البجائي قد أبدع في تصوير الشخصيات المذكورة في الرسائل وأسقط على لسانه ثقافة ذلك العصر الذي عدّ من أزهر عصور الأدب الجزائري القديم.

1. صورة الآخر الإيجابية:

انحصرت هذه الصورة في كل ما هو مرغوب من صفات حيث شملت ملامح الشخص الطيبة والحميدة والصفات المستحبة و ما جسده كل مؤيدي الخلافة المؤمنية لدى الكاتب، لذلك نجد لها ضروب كثيرة صنفها كالتالي: صورة الآخر المعظم، عظماء الدولة الموحدية، الآخر الموافق الصديق، صورة الآخر المبجل (الإعلاء)، الآخر المثقف و الفقيه في الدين، الآخر الواعظ، الآخر الشجاع و الآخر المسالم.

أ) صور التعظيم، عظماء الدولة المؤمنية:

تباينت صور خلفاء الدولة الموحدية بين العدل والقوة والتتقيف إلا أن صور العظمة والإعلاء غلبت بصفة كبيرة، فبدت لنا صورتهم مشرقة شريفة مشبعة بالورع والإيمان، فنجد الخليفة يحتل مكانة رفيعة إذ يتكرر وصفه بأخلاق تعلي من مكانة المرء نحو المؤمن التقي القائم على إبراز مكانة الإسلام و المسلمين والساھر على عزتهم، ممثلاً بذلك مسؤوليته في الاهتمام بأحوال البلاد، لذلك نجد المؤلف يفرد أعمالاً قام بها الخليفة لا يمكن للمرء من قومه أن يسايره في مثل هذا الأمر فيقول: "الرضا عن الإمام المعصوم، القائم بأمر الله مجاهداً أهل الأعراض عنه و الأدبار، المحي سنة الله تعالى، (...)، الداعي إلى الله، أيدهم الله بنصره، علم الهدى، (...)، و ارتضاه لتجديد شريعته، وشفى بعلومه الجليلة، (...)، و جلا بأضوائه الساطعة، و المعمل في إعلاء كلمته وتمكين أمور الحق، و الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين، و أعز نصره، (...)، و سيدنا الإمام أمير المؤمنين من الإيمان والأمانة والعدل والعبادة والطاعة من النعمة الكبرى"⁽¹⁾.

و في هذا القول مبالغة من قبل البجائي إذ يصور الآخر من خلال مدح سادته والمفاخرة بهم فهو يعلي من مكانتهم مما يظهر رغبة منه للحفاظ على نقاء صورة الموحدين، كما يسعى لترسيخ مآثرهم في الأذهان، فمثل هذه الأعمال تبقى خالدة على مر الزمان، لذلك نجده يعمل على تعزيز هذه الإيجابية في الأذهان، فالبجائي يصر على نحت صورة هؤلاء الخلفاء بطريقة مثالية كونهم يستعلون على الصغائر ويعذرون من قابل إحسانهم بالإساءة مثل: "...)، و أبان بهدايته المنقذة من الضلال، و قدر عود الإسلام بدعوته، و تمشية حقه، (...)، واعتذروا أنهم كانوا في قبضة القهر، فقبلوا متابهم ووصلوا بأسباب الصفح و القبول"⁽²⁾.

(1) لافي بروفنصال: مجموع رسائل موحدية، ص ص 163، 171، 175.

(2) المصدر نفسه: ص ص 187، 192.

و بذلك يجسد هذا الآخر مثالا للنبل في ذهن المتلقي، فصورة التسامح هذه التي بدا فيها الخليفة كريما طيبا مع أهل حاولوا التخلي عن مبادئهم أمر يعجز عنه الكثير ممن تأذوا و هم في مثل منصبه، لذلك فهي تعد من أكبر صور العظمة البشرية، بالإضافة إلى ذكر كرمهم وجودهم وصفات كثيرة علت بها مكانتهم ثم الحديث عنها على طول الرسائل البجائية، لذلك فالمؤلف يسهب في سرد أحداث تتعلق بشخصية الخلفاء، ليظهرهم بمظهر الأبطال الأقوياء الذين لا تقهرهم نزوات الدنيا و متعتها، وفي هذا الأمر ما يفسر طريقة كتابته المتقنة التي طغى فيها التصوير الحسي والانفعال الصادق بصورة متوهجة حية.

و يجدر بي الإشارة إلى أن مثل هذه الصورة قد وردت على طول الرسائل التي كتبها البجائي، أي من الرسالة الأولى إلى الرسالة التاسعة.

(ب) الآخر الموافق -الصديق:

لقد أبرزت الرسائل كلها أن البيئة الثقافية والاجتماعية من الخصائص التي ساهمت في إيضاح ملامح هذا الآخر الموافق و الصديق سواءً لحكم الخليفة والامثال لأوامره أو من خلال إنشاء علاقات صداقة مع أشخاص تابعين للدولة المؤمنية، لذلك لم يقتصر هذا الولاء على الأشخاص المسلمين فقط، و إنما شمل من بعث لهم برسائل لإعلان ولائهم نحو قوله: "(...)"، و لاذوا بالاعتصام بهذا الأمر السعيد، (...)"، والتزام الطاعة الصحيحة و المولاة، و اقتدى الرعايا، فسبقت الأساطيل المؤيدة طلبه الأسطول المظفر، (...)"، فكان أولياء الله، (...)"، أعز أنصار الحق وجنوده، (...)"، حركة أهل التوحيد⁽¹⁾، فكل هذه الألفاظ الدالة على وجود علاقة متينة بين الخليفة و من والاه هي صورة عن الطاعة والالتزام، و لهذا نجد أن هذا الآخر قد نظر إليه بنظرة خاصة ومتميزة، باعتباره الفئة الصالحة في المجتمع و كونه يمثل ما يطمح له الخليفة في إحياء حكمه، لذلك نجده يصرح باستحسان هذه الشخصية شاكرا إياها في بعض المرات، و لئن صح لنا القول بأن الرسائل حفلت بذكر لهذه الصورة في مرات عديدة فأفردت صفتها وفق سلوك إنساني رفيع مما

(1) المصدر السابق: ص ص 188، 189، 192.

أهلها للصدارة في حكم الدولة يقول البجائي مبرزاً إحدى أهم صفات هذا الآخر الموافق: "(...)، الراضي بالله ربا و بمحمد نبيا، (...)، و تتجز لأولياء الحق و أنصاره، أولياء هذا الأمر العزيز، وصل خطاب قراقوش و أرسله ماداً يدا الاستكانة، و وصلت أرسل أبي زيان سامعاً مطيعاً، (...)، حماة دينه، وتسديده المنجز المؤازر، و انتظامكم واجتماعكم (...)، و ظهر توحيدهم و متابهم، و لقوا من قبول هذا الأمر العزيز، و هذه الآفاق الإفريقية المؤيدة، إخوانهم العرب و بعض القبائل الرعية فبادر كلهم بنيات صادقة"⁽¹⁾ فنلمح في هذه المقاطع المختارة من رسائله تأييداً تاماً لا ريب فيه ليتحول هذا الآخر الموافق لشخص معتز، كثير الكرم بأفعاله التي يقوم بها من خلال مواكبة أوامر الخليفة. و هذا الأمر هو خطوة من المؤلف يبرز فيها كل ما عاكس ذاته محافظاً على نقاء هذه الصورة الموحدية و هذا الآخر المؤيد.

ج) الآخر المبجل "صور الإعلاء":

لقد اقتصرنا هذه الصورة على الجهات المرسل إليها بصفة خاصة كونهم كانوا ذوي مكانة مهمة في بناء الدولة لما يقومون به من أعمال تساهم في إرساء معالم هذه الخلافة فكان هذا الآخر في الرسائل: الطلبة، الشيوخ، الأعيان، الأكفاء الموحدين، العساكر، القبائل العربية، يقول: "من أمير المؤمنين إلى الطلبة والموحدين والأعيان والأشياخ والكافة، أدام الله توفيقهم و كرامتهم بتقواه"⁽²⁾، فيكاد يكون الآخر محدداً بصفة نهائية، إلا أننا نجد في ثنايا كلامه تقديراً عظيماً وإعطاء قيمة لم يعطها لشخصية وردت في رسائله دون غيرها و هو الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- إذ نجده يرسخ لصفات النبي ويتحدث بشوق مسهب يصور فيه إحدى أجمل صور الآخر التقية النقية محصياً أفضاله على دولة الموحدين والأمة جمعاء قائلاً: "الصلاة على محمد نبيه المصطفى، ورسوله الأكرم المجتبي، المختار من أشرف المحاتد، المسكت بفرقانه المعجز و بيانه الموجز كل

(1) المصدر السابق: ص ص 224، 228، 232.

(2) المصدر نفسه: ص 211.

نافس، و الماحي بنور نبوءته الخاتمة للمل، و شريعته الناسخة للأديان مظلمات الغياهب و مدلهمات الحنادس⁽¹⁾.

و هي صفات لم يمجّد بها غيره و لم يسكت عن ذكرها منذ الرسالة الأولى إلى الرسالة الأخيرة، إذن فالبجائي قد أفرد شرف التبجيل للنبي الكريم وحده فكان رسولنا مثال الآخر المبجل المقصود في رسائله، فهذا الآخر هو رمز للخير والعطاء ومثال يحتدى به في الحياة لذلك فإن صورة التسجيل هي ما كان يجب أن يتصف بها.

(د) الآخر المثقف و الفقيه في الدين:

في هذا الجزء نجد صورة المسلم الذي آمن بالدين ليس فقط من أجل الامتثال لأوامر الخليفة، وإنما رغبة منه لتعزيز مكانة الإسلام و الحفاظ على دينه بعد أن بدأت أيادي الأداء تطاله نحو: "وقد علمتم وفقكم الله، و أهداكم إلى مصالحكم و أرشدكم، و الشرف بالكون في عداد كلمة الله و ثارت لنصرة الدين عزائمهم، (...)، وكان ممن حضر لهذا الخير، الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان، فظهر منه مشاهد كريمة، كلها من أعمال الإيمان و جميل الأقوال و الأفعال، (...)، فنصروا دين الله، (...)، اقتداء بالخلفاء واهتداء بالأئمة الصلحاء و الصحابة البررة الأتقياء"⁽²⁾، فالمعلوم أن الصحابة و الأئمة من خيرة علماء الأرض و أكثرهم ثقافة و دراية بالدين لذلك كانت صورة المثقف الأصح ليتبنوها في هذه الرسائل، لذلك نجد المسلم الموحد يظهر في صورة مستمدة من الإسلام محافظا على أمانة الوطن داعيا لتعليم ما يدركه من ثقافات و أدب يساهم في تكوين الموحدين ثم إن الجهات المرسلّة إليها هي جهات ذات مكانة علمية كلها من طبقة العلماء و الفقهاء.

(1) المصدر السابق: ص 213.

(2) المصدر نفسه: ص 178.

هـ) الآخر الواعظ المصلح:

تظهر الرسائل الكثير من صور الآخر الصالح و هي من أجمل الصور التي رسمت كونها تقدم ملامح الإنسان المهتم بمجتمعه، الحريص على تقدمه و إرساء معالم الخير والتقوى والفلاح، فكان الخليفة هو رمز هذا الآخر كونه يمثل التوعية والنصح والإرشاد فيقول: "(...)، و الذي نوصيكم بها تقوى الله العظيم، و العمل بطاعته والتوكل عليه، وأن توقنوا بأن هذا الأمر محفوظ المقام، (...)، و اقتنوا مآثر الأمر العظيم، (...)، و رأينا أن نعرفوكم بهذا الأمر الأعظم، (...)، و اعقدوا بشكر الله على ما منح بها معاهد أنديتكم"⁽¹⁾.

فالخليفة يرتدي مهمة الواعظ المصلح والمرشد الدال للخير و الفلاح، و هي صورة تم تكرار حضورها في الرسائل جميعا، ثم نجد المؤلف يطور في هذه الصورة ليفصل في لغة التواصل بين الآخر والمسؤول فلا يكتفي بالنصح و إنما يكثر من الوصايا وذلك بصور مختلفة التفاصيل فنجد هذا النصح يرد بطريقة تظهر حسن العلاقة الموجودة بين الخليفة و غيره نحو: "(...)، من إرشاد هذا الأمر العزيز ما يسلك سبل الاهتداء، ويحملكم على حجة الحق السواء و يوضح لكم معالم الاقتداء، بهدي السلف، (...)، نوصيكم، منجاة من الزلال وعصمة، و ضياء من كل غيب، وهداية آخذة عن النار بحجر الأمة"⁽²⁾.

و) الآخر المجاهد - الشجاع:

كان السفر و مازال إحدى وسائل معرفة الآخر و هذا ما جسده رسائل البجائي التي تعد في أحد وجوهها مدونة أتاحت لنا فرصة معرفة طبيعة الآخر الشجاع و المجاهد الصلب، من خلال ما قدمته في موضوع الجهاد و ما صورته من أحداث في المعارك والحروب التي كانت تهدف للفتوحات والانتصارات فهو يشكل أروع صورة عن الآخر القوي المنتمي للحضارة الإسلامية نحو "(...)، و قامت أزكى شهيد على مراد الله في هذه الدعوة، (...)، من مشتقات احتملوها في طاعة الرحمان، و إجماما للسيوف، (...) الطائفة

(1) المصدر السابق: ص 172.

(2) المصدر نفسه: ص 177.

المنصورة، (...)، ثم صمدوا للعدو، وتفرغوا لرواحهم في سبيل الله، و إقدامهم في كل موقد، (...)، تحركت حفاظهم، و ثارت لنصرة الدين عزائمهم، و لم يبق من جموع رياح كلها على اختلاف قبائلها، و عشائرها، إلى من حضر من أعيانهم⁽¹⁾.

فمن قوله فإن الآخر يحمل أسمى صفات الشجاعة من صمود وإقدام وعزم ومواجهة و إن كان على حساب حياته فهو متفرغ للجهاد فان في سبيله، ثم تظهر الصورة أكثر إشراقا ودقة بعد تحقيق الفوز في هذه الفتوحات الجهادية، خاصة بعد أن ترك المجاهدون كل ما منحته الحياة من عز وجاه و أهل من ورائهم، كما أن هذا الشجاع يظهر حدة في مقاومة الظلم و يقدم على إغاثة القوم عندما يستجدونه بدون خوف أو تردد، فتجده يدخل الحروب بأسلا مغوارا فذا و يخرج منتصرا مبتهجا نحو قول البجائي: "(...)", فعرف كافتهم بما تقدم فيه سؤال الموحدين، (...)، و وقفت عنده قصوردهم الميمنة وغايتهم، فكان منهم المبادرة ود الإسراع والأعناق إلى إجابة داعية والتلقي لرايته المرفوعة، (...)، و أذاقه أهلها جماما و جرعه مذلة و إهانة و يقتلون من جماعته فرادى و تؤاما، (...)، فوجهنا الطلبة من نظر في أمر الأسطول و تهينته، و جردنا من الموحدين عسكريا منصورا لتدبيره، (...)، و استمروا على سيرهم المبرور، فقتلهم القبائل، (...)، و القبض على من أمكنهم، فناشبوهم القتال أشد مناشبة، فكانوا قراعا جلادا واحتسبوا جهادهم ذخرا⁽²⁾، ليسهب في ذكر صفات عديدة قد تم شرحها في المبحث الثاني أثناء تحليل الرسائل.

لذلك فقد كانت صفة الشجاعة ملتصقة بهذا الآخر مبرزة صور الرجولة الكاملة التي تقف في وجه كل مدّ يحاول تدمير مقوماتها و طمس معالمها، و هي من الصور التي وردت على طول الرسائل البجائية.

(1) المصدر السابق: ص 179.

(2) المصدر نفسه: ص 196.

ز) الآخر المسالم:

من الرسائل التي تظهر الكثير من صور التعايش السلمي والتي تؤكد على انفتاح شخصية الآخر و تحضرها، فنشهد على مظاهر الاستقرار والهدنة بالرغم من وجود الفتوحات ذلك أن الخليفة كان يدعو لاعتبار الحكم الموحد هو الأقوى بطريقة سلمية قبل خوض غمار الحرب وهو ما كانت تتقبله الكثير من الشخصيات، بالإضافة إلى وجود رسائل تتضمن التهئة و ذكر العلاقات التجارية و الفلاحية مثل: "و بلغنا زرعها إلى حال الكمال و الطيب و صيره رزقا واسعا لأحزابه المؤيدين"⁽¹⁾، و في هذا الأمر ذكر للمشاركة في الخيرات و قوله أيضا: "...)، واستسلموا، (...)، راغبين في الأمن والأمان، طالبين العفو والإحسان، فشملمهم من الرفق و الأمان ما أقرّ قرارهم بالسكون"⁽²⁾. فكلمة الاستسلام والأمن والرغبة فيه، وطلب العفو قد لقت آذان صاغية و مقابلة حسنة بالموافقة على هذه المطالب وهي أقوى دليل على سماحة المرء و طبيته و هي من أزهى الصور السلمية التي توجد في المرء و نستشف أيضا هذا الأمر في قوله: "...). وعدوا مدة رباطهم أفضل ماض من أعمارهم"⁽³⁾، فعيشهم مع بعضهم البعض عد من أهم مراحل حياة كل شخص إذن فتصوير لهذه الأحوال الاجتماعية تعزز من رصد صور الآخر السلمي البعيد عن العصبية و تقدم لنا لمحة عن طبقات المجتمع في تلك الفترة.

2. صور الآخر السلبية:

لقد تعددت الصور السلبية في الرسائل البجائية بين الخيانة و التمرد والمعارضة والردة و النفاق و مثل هذه الصور السلبية توحى باختلال القيم الأخلاقية في فترة من فترات الدولة الموحدية و هي أقسى تشويه قد يطال الآخر.

(1) المصدر السابق: ص 201.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: ص 207.

أ) الآخر المعارض - العدو:-

لقد مثل هذا الآخر الرافض عدة شخصيات تتدرج ضمن دول رفضت حكم الخلافة الموحدية، لذلك تنوعت منافذ اللقاء مع هذه الشخصية التي أبانت عن علاقات متوترة بين الطرفين، إذ لاقى التواصل بين الآخرين بالرفض، فنلاحظ البجائي قد قدم هذا الآخر بصورة نمطية في ملامح سلبية صبها في قالب العداوة والصفات الذميمة والمقاومة يقول: "(...)، أهل الأعراض عنه و الإدبار، أهل الجهل و الإنكار"⁽¹⁾.

فالمؤلف يطلق تسميات مشينة على من رفض الامتثال لأوامره و أنكر حكم هذه الدولة وقاومه، ثم يظهر هذا الآخر في صورة يوثق من خلالها لصراع سياسي ظهر في كثير من رسائله رسم من خلاله سوء العلاقة و تردي الأوضاع يقول: "(...)، وقد علمتم ما كان من الأشقياء الغزيين و إخوانهم في الضلالة الميورقيين من التحسب شئهم الغارات و اكتساحهم أراضيها هذا العام"⁽²⁾.

ثم نجد المؤلف يستعمل العديد من الألفاظ السيئة كتسمية لهذا العدو ذلك أنهم في نظرة استحقوها لأنهم رفضوا التسليم بآيات الله و أحكامه والسير على ما أمر الله به عبده يقول: "كفر بأنعم الله"⁽³⁾، ثم إننا نلمح في طرح صفات هذا العدو لغة إقصائية و لعله أمر مفروض وحتمي لما تتضمنه الحروب من أفكار معارضة ولغة عنيفة، فنجد البجائي يستمر في وصفه بالفسق والتعنت قائلا: "فوالى الفسقة عليهم الدفعات وصادقوهم المكافحة، (...)، ولما غنت للفاسق الفرصة، (...)، طلب من أمانيه الكاذبة وأراجيه الخائبة"⁽⁴⁾، و يقول: "فداخل أوباشا ممن كان بجاية"⁽⁵⁾، نجده يسمي العدو بـ: الفاسق والكاذب و الأوباش و هي كلها صفات ذميمة غير مستحبة في المرء ثم يشرح سبب جمع

(1) المصدر السابق: ص 162.

(2) المصدر نفسه: ص 169.

(3) المصدر نفسه: ص 182.

(4) المصدر نفسه: ص 183.

(5) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

هؤلاء و أنهم متفقون على عدم الاستجابة لمطالب الدولة، و هذا ما أدى إلى قيام الصراع و الذي رفضت فيه هذه الشخصية على هذا الأساس، لذلك فإن البجائي ضمنها لغة تحذيرية ليحد من عزيمة أعدائه.

إذن فصورة العدائي تؤكد على وجود صراع سياسي متبادل بين الطرفين، كما كانت صورته في أغلبها ذميمة مرفوضة غير مرحب بها في مجتمع الدولة الموحدية.

ب) الآخر المتمرّد:

قلما نجد صورة الآخر المتمرّد على سيده، فهو حين يخطو هذه الخطوة قد يفقد تعاطف مرؤوسه إلا أن البجائي رسخ لتمرّد هذا الآخر و رسم صورته السيئة، فنجده يستعين بأساليب ذميمة قذرة تظهر مدى سوء هذه الشخصية، يقول: "كان هؤلاء الأشقياء المتمرّدون و الكفرة المنخلعون من ثوب الإسلام"⁽¹⁾، فهو يشير إلى تمرّد الآخر و طغيانه على الدين الإسلامي و هذا ما حثه على التوغل في رصد صفات أكثر قائلًا: "أهل المروءة و العصيان"⁽²⁾، فهذا المتمرّد بالنسبة له مارد عاص استحق تسميته كالتّي أطلقها عليه و هذا ما يزيد صورته قبحا لدى المؤلّف و المتلقّي كونه استحقها، و يمكن القول أن هذا العداء الذي يظهره المؤلّف في بناء صورة الآخر أساسه حقد كبير بسبب محاولة هذه الشخصية التقليل من هبة الموحدين وليس مبنيا على أساس العرق أو الدين، ثم نجد أنفسنا أمام معاشية لصورة أكثر دقة تبرز تماذيا واضحا من قبل المتمرّد فتظهر الصورة بأسلوب مشوه بعيد عن روح الأخوة بين البشر وبالأحرى متجردة من الإنسانية لأنها تخلف مشهد صراع بشري حاد، يقول البجائي: "انتشر بها فساقه و فجاره، تعاوت إليه ذئاب الغارة و كلابها و اتصلت به أوغاد الفتنة وأوباشها، (...)، أسهابه في الضلالة وأعوانه في الجهالة"⁽³⁾.

(1) المصدر السابق: ص 196.

(2) المصدر نفسه: ص 164.

(3) المصدر نفسه: ص 183.

ففي هذه الصورة ذكر لتعاون الطغاة لزيادة قوتهم حتى تكون لهم القدرة على مواجهة من يقف في وجههم، و الجدير بالذكر أن صور التمرد قد طالت الرسائل كلها ولعل توفرها كان بسبب الصراع السياسي أيضا.

ج) الآخر المنافق و الخائن:

ظهرت هذه الشخصية بملامح دونية استصغر البجائي فيها صاحبها وقلل من شأنه واصفا إياه بالضعف مشككا في قدراته، لاصقا به صفات الحالم المتوهم والطامع في تولي مناصب الدولة وهو ما جعله ينحدر لمستوى الخيانة ورفض الولاء، وفي نظره (البجائي) مثل هذا الشخص هو ناكِر للجميل يقول: "سولت له نفسه الخبيثة (...)"، وامتدت أطماعه و آماله و غطى على بصيرته جهله و ظلاله، (...)"، مصرفا كيده و مكره"⁽¹⁾.

إذن فنفس هذا المرء هي وكر للطمع والخبت، كما أنه جاهل غوي لا يدرك خطورة شخصيته و ما سيرتد عليها من مثل هذه الصفات، و مثل هذه الصور تعد توثيقا لمجتمع يضم بذرة الفساد فإن وجد من وقف في وجهها و استأصلها لصح حاله و إن كان العكس ظل في أحرق أوضاعه، و قد لازمت هذه الصورة شخصيات تلك الحقبة مما زاد من احتقار المؤلف لصاحبها فيقول: "وحلوا من هنالك على عادتهم في المراوغة والمخادعة (...)"، و كانوا يموهون على أتباعهم و يخدعون الضعفاء ببوارق الزور و الخيال"⁽²⁾.

فهذا الشخص الخائن لم تشمل خيانتة الدولة فقط و إنما كان ينافق حتى من والاه من أتباع إذ كان يكذب عليهم و يوهمهم بأمور لم تكن لصالحهم حتى وقعوا ضحية أفعالهم يقول: "و انهزم الأشقياء، الشرمذة الذميمة، و بقي الخائن الخاسر مسلوبا محروبا منكوبا وانبهمت عليه أوائل أمدّه"⁽³⁾، كما أطلق عليهم تسمية "أهل الشقاق و النفاق"⁽⁴⁾، و إن

(1) المصدر السابق: ص 184.

(2) المصدر نفسه: ص 198.

(3) المصدر نفسه: ص 153.

(4) المصدر نفسه، ص 164.

استطعنا القول أنها صفات شاع استعمالها في العصر الإسلامي كثيرا فكان يطلق على كل من خان الدين بمثل هذه الألفاظ ونحوها، و قد ذكر في الرسائل التسعة صفات منفردة كثيرة لهذا الآخر غير السوي في المجتمع.

(د) الآخر الكافر:

إن قولنا للآخر الكافر لا يعني بالضرورة أن يكون نصرانيا أو غير ذلك ممن لم يعتنق الإسلام، فكما توضح الرسائل كان هناك من العرب الذين خرجوا عن طاعة المولى عز وجل و رفضوا الإسلام و الامتثال لأوامر الدين، لذلك وردت صفات عديدة كانت لها الغلبة على باقي الصور الأخرى، لذلك فإن ما حدث للموحدين من محنة المواجهة والتصدي للحروب قد نشط خيال البجائي للإبداع في أفراد ملامح الكافر فصور صفات تتنافى مع طبيعة المسلمين خص الطرف الآخر فنجدته يقول: "أهل الشرك"⁽¹⁾، فالمسلم لا يشك مع الله أحدا كما يسميهم: "أحزاب الشيطان و جموعه، جماعة الخبيث و جموعه"⁽²⁾ فهو يفرد لهم تسميات ذميمة تخص من اتبع الغواية و ابتعد عن الإسلام وذكره للشيطان تأكيد على مدى سوء الحالة التي عايشها هؤلاء، ثم نجده يذكر صفات تخص هؤلاء الكفرة قائلا: "أوباش جمعتهم الفتنة، و استجرهم الطغيان، فركب العصيان رؤوسهم، و بذلوا في طاعة الشيطان نفوسهم و تتابعوا على الهوى في مساقط الردى"⁽³⁾، فذكره لهذه الأعمال الدنيئة و تخصيصه لها على أنها صفات للكافر و العبد غير السوي تأكيد على إعلاء لمكانة الموحدين الذين سبق له ذكرهم في صور إيجابية قبل الآن، لذلك فاستباحتهم للمحرمات جعلت البجائي يسخط عليهم و قساوة هذه الأخلاق و فضاعتها زادت من حدة ذكر ملامحهم في أقبح المظاهر، يقول: "ليزداد إثما و إمهالا، (...)، و يعم بظلمه البلاء

(1) المصدر السابق: ص 180.

(2) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه: ص 215.

والعناد⁽¹⁾، و أيضا: "من رام إنكار الأمر العزيز"⁽²⁾، و قصد المؤلف بالأمر العزيز طاعة الله و تقاته، و أيضا: "فران على قلوبهم من الإهمال والاعتذار"⁽³⁾، و في هذا القول اقتباس من القرآن الكريم و في ذلك ذكر للفجرة من الكفار من اتبعوا الحياة الدنيا على حساب الآخرة، و لم يكتفي البجائي بذكر هذه الصفات فقط وإنما أطل الحديث من تسميات هذا الآخر كما فعل مع صفات التي سبقته و هو ما سنبينه في جدول إحصائي لاحق.

لقد كانت أغلب صور الآخر في الرسائل البجائية تنحصر بين صور سلبية وأخرى إيجابية لعبت دورها شخصيات إما ذكرت بطريقة مباشرة من خلال تسميتها أو ذكرت بالإشارة إليها باستعمال الضمائر وغيرها، فكانت الهاء من أكبر الرموز الإشارية التي رجعت على الآخر خاصة في الصور الإيجابية و هذا الجدول يبين اسم الشخصية والصفة التي حاز عليها في الرسائل.

3. جدول يبين صور الآخر:

يظهر هذا الجدول ملامح الآخر و أوجه الاختلاف فيما بينها بوضوح سواء، تحدث عنه الكاتب بصفة مباشرة أو بصفة مضمرة من الرسالة الأولى إلى الرسالة التاسعة:

(1) المصدر السابق: ص 187.

(2) المصدر نفسه: ص 216.

(3) المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

الصور الإيجابية:

الآخر المعظم	الآخر الصديق	الآخر المبجل	الآخر المثقف	الأخر الواعظ	الآخر الشجاع	الآخر المسالم
- الخليفة المأمون وظهر كوجه للآخر في كل الرسائل - النبي الكريم ورد في كل الرسائل - الإمام المعصوم - المهدي المعلوم - المصيب المنصور...	- الجنود - الأحمر والأسود - المؤازرين والأنصار - الموحيين - أشياخ العرب وأعيانهم وكبرائهم وقبائل رياح - الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان - المسلمين...	- الطلبة والشيوخ والموحيين والأعيان برزت صورهم في كل الرسائل - النبي الكريم (ص) - الخليفة - الصادق الأمين - الصادق المختار - أهل التوحيد - المؤمنين - تقليدنا الأمانة العظمى...	- ذوي الأبصار - ذوي اليقين والأبصار - المحي سنة الله - أهل التوحيد - الطلية والحفاظ - ما يحييه على بصيرته و علمه - الحافظ لنصابه - الجامع بالتقوى - أحيا الله به مراسم الإسلام - الدارس...	- الناطقين بالإقرار - الداعي إلى الله - يعمر صدوركم انشرأحا - الكريم - الداعي للخير - ملك الإحسان - معلي الدين ورايته - نوصيكم بتقوى الله ...	- الطائفة المباركة - الجنود - الذاهب لنصرة الدين - أهل البسالة والنجدة والشدّة - من الشباب عهودهم - الجماعة المذكورة - حفائظهم نستشف وجود الآخر من خلال الجمع - جهاد أعدائه فالهاء تعود على هذا الشجاع المغوار - سار للجهاد في سبيل الله - جند الله - مؤيد الله - المدافع وفرسانهم وأشدائهم...	- جميعهم في الحركة الطبية - رباطهم في سبيل الله - مسارعا إلى الامتثال والطاعة أي هو هذا الآخر - بادر للامتثال - بما عاهدوا عليه الله - إجابتهم جميعا بنفوس الطاعة وقصد العرب...

الصور السلبية:

الآخر العدو	الآخر الخائن	الآخر المتمرد	الآخر الكافر
- الحزب الذميم - أعداء الله - حبائل الهلكة و اشراكه - زعماء الكفرة - الشراد و النفار - أهل الاعراض - والإدبار...	- كذبتهم ظنونه أي الخونة - قباح الجامح - و انقلبوا على أمورهم - رجوعهم عن الغواية أي عادوا - واستدركوا أمورهم - الفسقة المرتدين - آثار الفتن والمريد خادع الضعيف - المرتدون المارقون - أهل الشقاق و النفاق...	- الجمع الخاسر - جموعه الذليلة - المعارض لخدمة الله - قبائل الشريد - الأيدي الظالمة - المغتصب - المرتدون الضالون...	- الكافر - زعماء الكفرة - تراكم الشرك و أشياعه - ازدادوا ضلالا - تجاوزوا في أمر الرب - ركب العصيان رؤوسهم - أهل الجهل والإنكار - أهل الكفر والفساد...

حیاتِ تمیز

خاتمة

إلى هنا أجد نفسي قد حطت الرحال مع خاتمة هذا العمل الذي تمنيت لو قدمت له من البحث و الدراسة أكثر مما أتيح لي، فقد كانت هذه المذكرة دراسة للآخر و تجلياته في الأعمال الأدبية نحو: صورة الآخر في رسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي، وعرضا لأحد أهم الفنون النثرية التي تشكل تراثا عربيا زائرا و هي جنس الرسالة، لذلك خلصت الدراسة إلى نقاط هامة تمثلت أساسا فيما يأتي:

- مصطلح الصورة له جذور تاريخية منذ القدم تطورت مع المحدثين وهذا بتأثير تيارات أدبية و اختلاف المشارب الثقافية للنقاد.
- اتساع دائرة مفهوم الصورة إذ حازت على تعريفات عديدة مما جعلها نقطة اختلاف بين القدامى و المحدثين من العرب و الغرب.
- مفهوم الصورة بالنسبة للدارسين يتسم بتعدد المفاهيم، إلا أنه متقارب من حيث الهدف و الفهم.
- لطالما كان الآخر و مازال كل ما خالف الذات من جميع جوانبها سواء الجانب الشكلي أو الجانب الفكري (الحضاري، الاجتماعي، الثقافي).
- اعتبرت الرسالة جنسا أدبيا و عدت مرحلة مهمة من مراحل تكوين النثر الفني وبنائه.
- نشأة أدب الرسائل هي نشأة قديمة العهد إذ كانت منذ العصور الأدبية الأولى وأفردت لها خصائص مستقلة من عصر لآخر مع تلاقيها في نقاط.
- فن الرسالة أدب مستقل بذاته كونه يمتلك خصائص فنية و مقومات لا يشترك فيها مع فنون أخرى.

- لا يمكن للرسالة أن تكون في لون واحد أو نوع واحد و إنما أظهر هذا الأدب تنوعا زاخرا في ألوانها كشف البحث عن أهمها نحو: الرسائل الديوانية، الأهلية، الأدبية، المزوجة.
- يمكن القول إن كُتاب هذا الفن هم عباقرة الأدب و رواد الكتابة الفنية لما كان لهم من مميزات لا يمكن توفرها في الكاتب أو المؤلف العادي حتى إنهم حازوا على شروط و قوانين لا بد من حضورها في شخصية كاتب الرسالة.
- لقد كان للأدب الجزائري القديم حضور قوي وصدى مؤثر في بناء أدب مغربي عتيق.
- لم يغب أدب الرسائل عن الساحة الأدبية الجزائرية القديمة فبرزت عصور كانت الأرقى في هذا الفن، و لعل العصر الموحي من أكثر العصور احتضانا لهذا اللون.
- يعد أبو الفضل بن محشرة من رواد فن الرسالة الأدبية الجزائرية وأهم كتاب العصر الموحي إذ كشف البحث عن تسع رسائل من إنشائه في ظل هذه الدولة.
- أبانت الرسائل البجائية عن حنكة و خبرة أديب جزائري وكيفية مساهمته في التأطير لأدب جزائري قديم مستقل.
- لقد عرضت الرسائل البجائية لطبيعة وعبقرية كاتبها من خلال استعمالاته اللغوية وطريقة تأليفه لها.
- لقد أظهرت الرسائل البجائية تنوعا كبيرا في مضامين الرسائل وتنوعا في مواضيعها وبالتالي يمكن القول أن الرسائل لا تقتصر بالضرورة على حمل موضوع واحد وإنما يمكن أن تتضمن عدة قضايا في رسالة واحدة.
- لم تكن الرسائل التي قدمها البجائي محصورة في نوع واحد و إنما تخللتها أنواع أخرى و إن كانت الغلبة للون الديواني.
- تميزت رسائل أبو الفضل بخصائص مستقلة عن غيرها مما جعلها تكون خصائص لأدب الرسائل الموحي دون غيرها من العصور.

- تنوعت صور الآخر في رسائل البجائي بين صور إيجابية و أخرى سلبية، فكانت الغلبة لحضور الآخر الإيجابي على حساب السلبي و هو ما عزز حضورها الكبير في تكوين بنية الرسائل البجائية.
- كانت الصور المتضمنة في الرسائل بمثابة صور حية عن الواقع المعيش في ظل الدولة المؤمنية، حيث كان أساسها الفضائل النفسية لا المزايا الجسدية و هو ما ساعد المؤلف على إظهار سبل التصوير عنده فقد لوحات شخصية عن طبقات المجتمع الموحد.
- الرسائل البجائية هي رصد دقيق لثقافة المرء في تلك الفترة و هي تظهر ثلوثا ثقافيا كبيرا، كما تبرز طبيعة المرء و اتجاهاته القومية والدينية فكان جانب التحفظ الإسلامي بارز الوضوح.
- كانت صفات الآخر وملامحه إما بالإشارة إليها أو بذكر اسم هذا الآخر مباشرة.
- على العموم تميزت الرسائل البجائية بصعوبة الألفاظ و عمقها و كثرة المحسنات ووفرتها مما زادها غموضا و إثارة و هو باعث نفسي لدى القارئ من أجل الغور في مضامينها، فهذه الرسائل بمجرد دراستها تظهر ما لا تبطن إلا بعد التدقيق في تحليل موضوعاتها، كما تميزت بالطول المسهب في أغلبها إلا أنها عرفت بحسن الابتداء و التنقل بين ثنايا موضوعها فلم تكن من الرسائل المبتورات -ابتداءً و لا خاتمة- بالإضافة إلى أنها كانت ذات أهداف واضحة صورت في قالب تربوي شمل النصح و الإرشاد و التوعية.
- كانت الرسائل رسدا لطبوع مختلفة لدى البشر تراوحت بين الحسن منها والرديء المذموم.

طالِق

ملحق

540 – 598 هـ (1135 – 1202م)

هو أبو الفضل بن محمد علي بن طاهر بن تميم القيسي، المعروف بابن محشرة، كان أبوه قاضيا ببجاية فنشأ بها و درس على يد علمائها، ثم استدعاه الخليفة أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى حاضرة مراكش، و لما وصل إليها اتخذته الخليفة كاتب سره و بقي بها إلى وفاته.

كان بن محشرة كاتباً متمكناً من المعرفة، بحيث أن الخليفة لما أطلع على ما عنده من العلم و الكتابة التي استدعاه من أجلها إنما هي بعض صفاته، وقد أثبت له صاحب مجموع رسائل موحدية تسع رسائل من إنشائه⁽¹⁾.

(1) الغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر على آثار أدباء الجزائر، أو الأدب العربي الجزائري عبر النصوص، المرتبة ترتيباً من الفتح العربي إلى عصرنا، دار البصائر، الجزائر، (د-ط)، ص 312.

طاهر

ملخص

لقد تناول البحث قضية جنسا أدبيا نثريا ظهر منذ القدم أبرز من خلال خصائصه قضية الصورة و الآخر، كونه عنون بـ: "صورة الآخر في رسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي"، والذي ضم مقدمة كانت عبارة عن لمحة تمهيدية تحدثت عن ماهية هذا الموضوع وإشكالياته ليكون الفصل الأول وقفة بين يدي العنوان عرضت فيه لمفاهيم المصطلحات نحو: الصورة، الآخر، الرسالة في اللغة و الاصطلاح سواء مع العرب أو الغرب، ثم تطرقت لأهم العصور التي برزت فيها الرسالة كلون نثري مستقل، فعرفت على أنها جنس أدبي نثري له خصائصه و سماته التي تميزه عن غيره من الأجناس النثرية، ثم ذكرت أهم عصور الأدب الجزائري القديم التي رصعت بهذا الفن و التي تميز فيها العصر الموحدى عن غيره مقارنة بباقي العصور و هو ما أكدت من خلال على وجود أدب جزائري قديم مستقل بذاته عن باقي الآداب الأخرى بالإضافة لرصد أهم خصائص و سمات فن الرسالة و ذكر أشهر أنواعها.

وفي الفصل الثاني رصدت صور و معالم الآخر و ملامح كيانه بالإضافة لمعرفة قضاياه الثقافية و المعرفية من خلال فن الرسائل لصاحبها أبو الفضل بن محشرة البجائي و الذي ظهر كأيقونة لهذا الفن في عهد الموحدين، فأكد على أن الآخر هو كل ما عاكس الذات سواء فكريا أو جسديا، كما أن الصورة يمكن أن تكون ملموسة جسدية أو محسوسة من خلال ثقافتها و دراسة انتاجاتها الفكرية، بالإضافة إلى أن الرسائل التسعة، كانت من أهم الرسائل التي تؤرخ لحضارة موحدية ارتكزت على الفكر الإسلامي الإيجابي البعيد عن التشاؤم والصفات الذميمة.

أما عن الأدب الجزائري القديم فهو أدب مستقل بذاته رسم لحضوره كتاب و مؤلفين و البجائي خير دليل على ذلك.

Résumé

Le sujet de notre étude est basé sur un genre littérature prose qui existe depuis longtemps. Ce genre qui appartient a ses caractères le sujet de (l'image et l'autre).

On a donné a notre études ce titre : « L'image de l'autre dans les lettres de Abou Fadle Ben Mahchera El Bijaàï », on a commencé par l'aperçu d'introduction pour l'essence et la problématique de ce sujet. Après on a expliqué dans le premier chapitre d'une manière linguistique et la terminologique chez Lorient et l'occident certain terme comme : l'image, l'autre, le message ou la lettre. Puis on a mentionné les époques importantes de l'apparition de ce message comme un genre littérature prose indépendant, connu par ses propres caractéristiques qui lui distingue.

On a aussi mentionne les anciens époques de la littérature algérien qui a était enrichi de cet art surtout l'époque Mouahidi qui confirmé l'existence d'un littérature algérien ancien indépendant d'autre genre de littérature et distingué les caractères de l'art de message et ses types.

Dans le deuxième chapitre on a parlé de l'existence et les formes et les caractéristiques de l'autres pour bien comprendre les questions culturelles et épistémologiques selon la chef-d'œuvre l'art des messages pour « Abou Fadle Ben Mehchera El Bijaàï ». C'était lui ce dernier qui a confirme que l'autre est : tout qui est contraire de soi dans le coté physique et intellectuel sensation et que l'image peut être physiquement tangible ou culturellement et qui étude ces productions culturelle.

En addition dans la civilisation de mouahidin tout les neufs messages étaient parmi les plus importants messages qui basaient sur la pense islamique positive loin de pessimisme et les mauvaises caractères.

La littérature algérien ancien c'est un littérature indépendant qui se preuve son existence par ces excellent écrivain tel que Abou Fadle Mehchera El Bijaàï.

قائمة المطايع والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم رواية ورش

أولاً: المصادر:

01. لافي بروفنصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية، دار النجاح، الرباط، المغرب، (ط1)، 1941.

ثانياً: المراجع:

01. إبراهيم بكير: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، الجزائر، ط1، 1985.
02. ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفي محمد شرف، دار الصحوة، القاهرة، (د-ط)، 1929.
03. أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، القاهرة، (ط1)، 1979.
04. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ضبط نصه و علق على حواشيه: خالد رشيد القاضي، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 2006، باب الهمزة.
05. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ضبط نصه و على حواشيه، رشيد القاضي، دار الصبح، القاهرة، ط1، 2006، ج27، مادة (ص، و، ر).
06. أبو القاسم سعد الله: مجموع رحلات، رحلة الأغواطي، دار المعرفة الدولية، الجزائر، (د-ط)، 2011.
07. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان و التبين، تحقيق: درويش جودي، دار إحياء التراث، بيروت، (د-ط)، الجزء الأول، 2003.
08. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط2، المجلد 3، 1945.

09. أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: مفيدة قميحة، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1981.
10. أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، (د-ط)، 1996.
11. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار النهضة، مصر، (د-ط)، (د-ت).
12. أحمد عزاوي: رسائل موحدية جديدة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، المغرب، ط1، 1995.
13. الشيخ عبد الله العاليلي: الصحاح في اللغة و العلوم، دار الحضارة العربية، بيروت-لبنان، ط 1، 1974.
14. آمنة الدهري: الترسل الأدبي في المغرب، النص و الخطاب، الدار العلمية، المغرب، ط1، 2003.
15. أنيس مقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1982.
16. بطرس البستاني: أدباء العرب في العصر الأعصر العباسية، حياتهم، آثارهم و نقد آثارهم، دار الفكر اللبناني، بيروت-لبنان، ط1، 2011.
17. بوزياني الدراجي: أدباء و شعراء من تلمسان، دار الأمل للدراسات، (د-ط)، الجزائر، 2011.
18. بوزياني الدراجي: زهر البستان في دولة بني زيان، مؤسسة بوزياني، الجزائر، (د-ط)، 2001.
19. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 3، 1992.
20. جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العالم للملايين، بيروت، ط 1، 1979.
21. حازم القرطاجني: مناهج البلغاء و سراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتاب الشرقية، تونس، (د-ط)، 1966.

22. حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط1، 1986.
23. زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، دار السعادة، القاهرة، ط1، 1934.
24. سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، تحقيق: أحمد كروم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط3، 2000.
25. سيسيل دي لويس: الصور الشعرية، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي، دار الرشيد الفليج، الكويت، ط1، 1969.
26. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط 12، 2001.
27. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط20، 2002.
28. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط11، 2002.
29. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط24، 2003.
30. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط 16، 2004.
31. شوقي ضيف: عصر الدول و الإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا والسودان، دار المعارف، مصر، ط1، (د-ت).
32. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، دار نويهض للثقافة و التأليف، لبنان، ط 2، 1980.
33. عبد الحكيم العبد: تاريخ الأدب العربي، صدر الإسلام و عهد بني أمية أكثر من منظور ونماذج من النثر و الشعر، دار الفنون، مصر، (د-ط)، 2006.
34. عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط2، 1972.

35. عبد القادر القط: الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط 3.
36. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت، ط1، 2000.
37. عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة، الجزائر، (د-ط)، 2009.
38. عمر عروة: النشر الفني وأبرز فنونه و أعلامه، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، القصبة، (د-ط)، (د-ت).
39. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981،
40. غالب حسن الشابندر: الآخر في القرآن الكريم، العراق-بغداد، (د-ط)، 2002
41. فوزي سعيد عيسى: صورة الآخر في الشعر العربي، تدقيق: عبد العزيز جمعة، دار النهضة العربية، الكويت، ط1، 2011.
42. كارلونيونو: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر بني أمية، تقديم: طه حسين، دار المعارف، مصر، ط2، 1911.
43. مبارك بن محمد المليي الجزائري: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، تقديم و تصحيح: محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د-ط)، 1986.
44. مجموعة من الأساتذة: الأدب و الأنواع الأدبية، ترجمة: طاهر حجار، دار الكتب العلمية، دمشق، ط1، 1985.
45. مجموعة من المؤلفين: صورة الآخر ناظرا و منظورا إليه، دار الملايين، بيروت، ط1، 1999.
46. محمد عبد المنعم الخفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
47. محمد الوالي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي و النقدي، نقلا عن Aristobes, Rmetorica aaguialr, Madrid ; 1986, p 240

48. محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966.
 49. محمد رمضان شاوش: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع و إشهار داود بريكسي، الجزائر، ط2، 2005.
 50. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي و حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب و الأندلس، دار القلم، الكويت، ط3، 1987.
 51. محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، المضامين والخصائص الأسلوبية، ليبيا، المجلد 1، ط 1، 2004.
 52. مصطفى بشير القط: مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازوري العلمية، عمان -الأردن، (د-ط)، 2009.
 53. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، مصر-القاهرة، (د-ط)، 1970.
 54. مكارم الغمري: الرواية الروسية في القرن 19، دار المعرفة، الكويت، ط7، 1981.
 55. منير السباعي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس و المغرب، دار العلوم، الخليج، ط2، 1937.
 56. ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، ط3، 2002.
 57. ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار الصحوة، القاهرة، (د-ط)، 1956.
- ثالثا: الرسائل الجامعية**
01. يحيى زكية: الصورة الفنية في التجربة الرومانسية، ديوان أغاني الحياة للشابي، رسالة مقدمة لنسب شهادة الماجستير في اللغة العربية، جامعة مولود معمري، الجزائر.
- رابعا: الموسوعات**
01. أحمد الشويخات: قرص الموسوعة العربية العالمية، الإصدار الأول، الموقع الإلكتروني: www.intaaj.net

فهارس الموضوعات

فهرس الموضوعات

أ مقدمة

الفصل الأول

فن الرسالة في الأدب الجزائري

08 المبحث الأول: مفهوم الصورة والآخر في التراث العربي والغربي

08 تمهيد

09 أولاً: مفهوم الصورة

09 1. المفهوم اللغوي

10 2. المفهوم الاصطلاحي

10 أ) الصورة في الدراسات العربية القديمة

12 ب) الصورة في الدراسات الغربية

14 ج) الصورة في الدراسات العربية الحديثة

15 ملخص

16 ثانياً: مفهوم الآخر

17 1. المفهوم اللغوي

17 2. المفهوم الاصطلاحي

19 المبحث الثاني: نشأة الرسالة، أنواعها وخصائصها

19 تمهيد

20 أولاً: مفهوم فن الترسل

20 1. المفهوم اللغوي

21 2. المفهوم الاصطلاحي

24 ثانياً: نشأة أدب الرسائل وتطوره ومميزاته

24	1. الرسالة في العصر الجاهلي
26	2. العصر الإسلامي
27	3. العصر الأموي
29	4. العصر العباسي
31	ثالثا: أنواع الرسائل و أصنافها
32	1. الرسائل الديوانية
34	2. الرسائل الأهلية-الإخوانية
36	3. الرسائل الأدبية
38	4. رسائل المزوجة
39	رابعا: الخصائص الفنية لأدب الرسائل
39	1. بنية المقدمات
40	2. بنية المضمون أو العرض
40	3. بنية الخاتمة
41	خامسا: شخصية كاتب الرسالة
43	المبحث الثالث: فن الرسالة في الأدب الجزائري القديم
43	بدايات الأدب الجزائري القديم
43	1. الفترة التاريخية و الزمنية لنهضة الأدب الجزائري القديم
45	2. مفهوم الأدب الجزائري القديم
46	3. بواكير الأدب الجزائري بعد الفتح الإسلامي
46	أ) الدولة الرستمية
48	ب) الدولة الموحدية
50	ج) الدولة الزيانية
52	ملخص

الفصل الثاني

قراءة في رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي

55	المبحث الأول: السياق النصي في رسائل البجائي
55	1. الهدف من دراسة أدب الرسائل
55	2. أهمية أدب الرسائل البجائية وقيمتها في الأدب الجزائري
56	3. القصد من تحليل رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي
57	4. تقديم رسائل أبو الفضل بن محشرة البجائي
58	أ) لغة الرسائل البجائية
59	ب) مواضيع و مضامين الرسائل البجائية
60	ج) الخلفية المعرفية لأبي الفضل بن محشرة البجائي
62	المبحث الثاني: البناء النصي لرسائل أبي الفضل بن محشرة البجائي
62	1. الكشف عن البنى الداخلية للرسائل
103	2. أنواع الرسائل
103	أ) الرسائل الديوانية
104	ب) الرسائل الوجدانية
105	ج) رسائل المزاجية
105	3. خصائص ومميزات الرسائل البجائية الموحدية
107	المبحث الثالث: صورة الآخر في رسائل البجائي
107	تمهيد

107	 4. صورة الآخر الإيجابية
108	 أ) صور التعظيم، عظماء الدولة المؤمنية
109	 ب) الآخر الموافق -الصديق
110	 ج) الآخر المبجل "صور الإعلاء"
111	 د) الآخر المثقف و الفقيه في الدين
112	 هـ) الآخر الواعظ المصلح
112	 و) الآخر المجاهد -الشجاع
114	 ز) الآخر المسالم
114	 5. صور الآخر السلبية
115	 أ) الآخر المعارض - العدو -
116	 ب) الآخر المتمرد
117	 ج) الآخر المنافق و الخائن
118	 د) الآخر الكافر
119	 6. جدول يبين صور الآخر
123	 خاتمة
126	 ملحق
128	 ملخص
131	 قائمة المصادر و المراجع
138	 فهرس الموضوعات